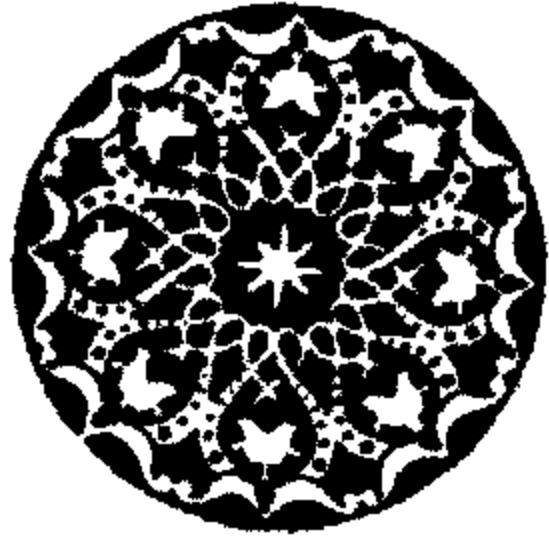


أنيس منصور



طالع البدر علينا

المكتب المصري الحديث



طالع البدر علينا

الطبعة الأولى
١١ ربيع أول ١٣٩٥ هـ
٢٥ مارس ١٩٧٥ م

الناشر
المكتب المصري الحديث

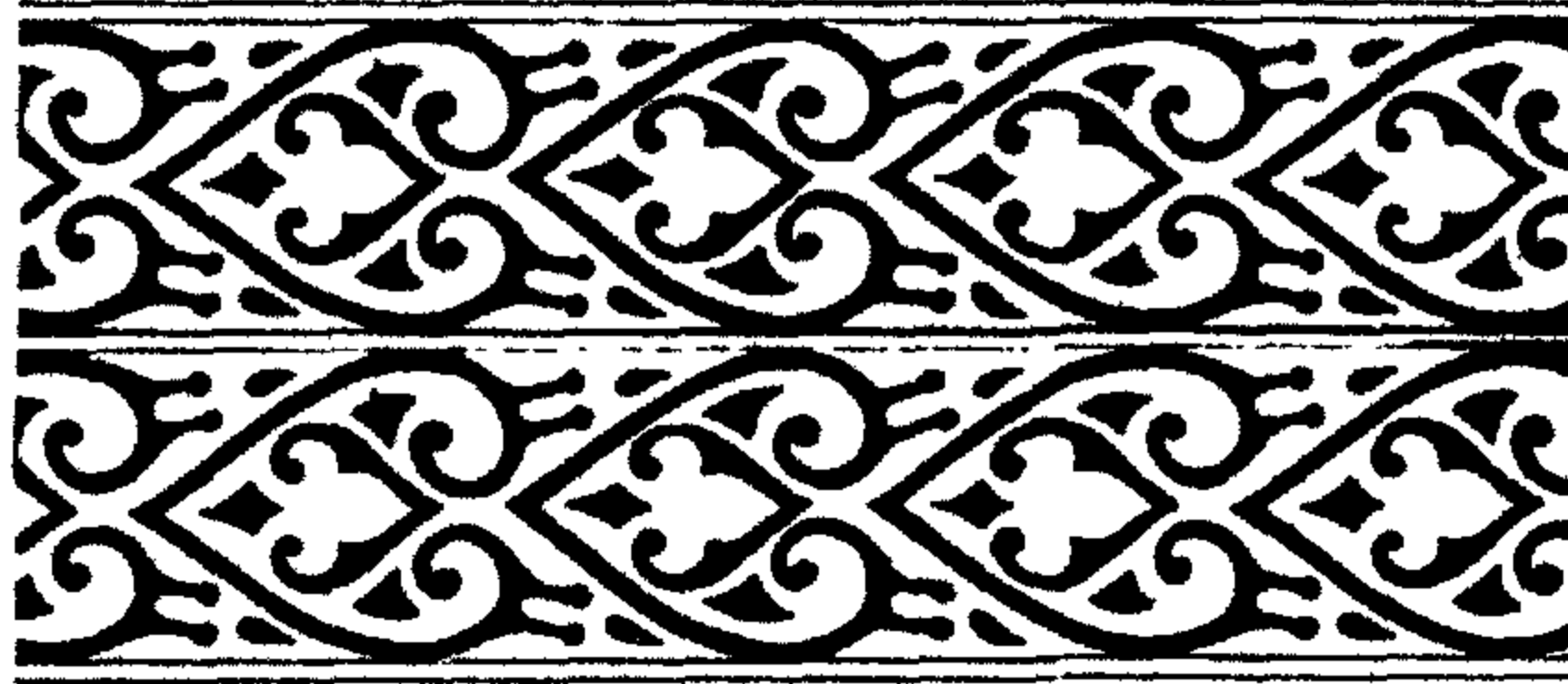
٧ ش نوبار الاسكندرية ت ١ ٢٦٦٠٢
٢ ش شريف القاهرة ت : ٥٢١٢٧

أنيس منصور

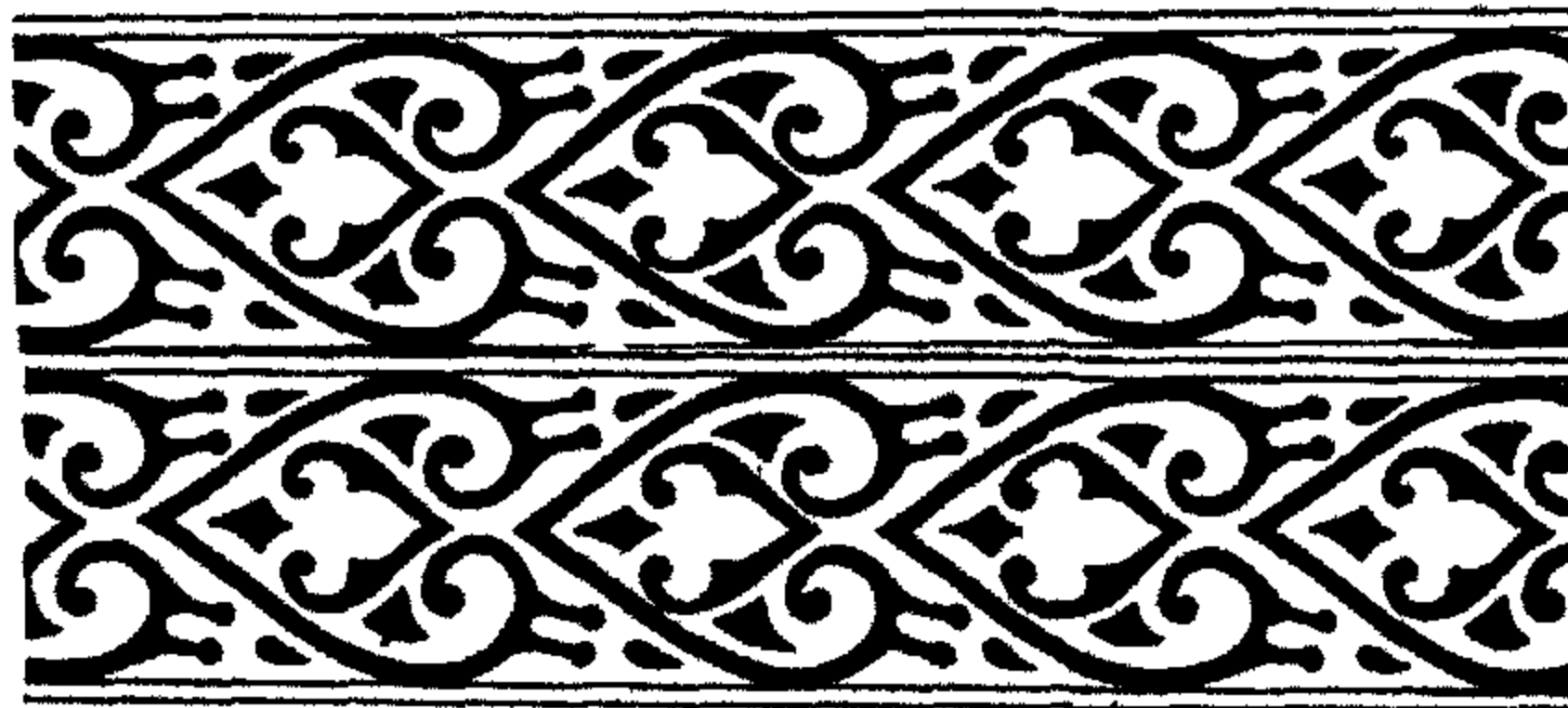
طلع البدر علينا



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



أَسِيَامُ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ



أريد ..
ولكني لا أستطيع !!

الآن فقط عذرت كل الذين انفتحت لهم « طاقة القدر » وأتيحت
لهم فرصة العمر أن يطلبوا من الله شيئاً ، ولكن الصدمة الباهرة
أفقدتهم القدرة على النطق ، أو القدرة على أن يرغبوا في شيء ،
وأغلقت أمامهم ، وفي وجوههم ، ودونهم طاقة القدر ، وأظلم كل
شيء ، ولم يتحقق لهم شيء .. لأنهم لم يطلبوا شيئاً .

وعذرت الذين كسبوا المليون جنيه ، ثم ماتوا من شدة الفرحه ،
كأنهم خسروها لا كسبوها .

إنها - إذن - المفاجأة التي لا تقوى مشاعرنا على مواجهتها ، أو
الوقوف أمامها ، أو الصمود الوجداني لها .

إننى أحاول أن أصف شعورى ، وقد تياتى للحج ، وأحرمت ،
وتعريت ، وتجردت ، وأحسست ببرودة النهار والليل ، ونخفت
من كل أمراض الدنيا ، وأعددت لها كل ما اخترعه الطب
الحديث ، وعلم النفس القديم .

وأقت من نفسى درعا من لحم ودم ، ودرعا آخر من الإرادة
واللا إرادة حتى لا أنهار جسميا ومعنويا .

إننى كالذى يريد أن يقفز قناة واسعة عميقة ، ولذلك يحاول
أن يتراجع إلى الوراء قبل أن ينطلق فوقها .

إننى أحاول أن أرجع إلى سنوات مضت عندما ذهبت إلى
القدس ، ووقفت أمام حائط المبكى . . ألعن الذين أقاموه والذين
عبدوه ، وأحسست أن هذا الذى أراه يحسدنى عليه ملايين اليهود
فى العالم ! !

وتمنيت لو أن قلوبهم ظلت موجوعة متمزقة على هذا الذى رأيت
ولم يروه . .

ولكن الحائط وتاريخه ، ودموع المؤمنين به لم يهزمنى قط ،
ولا ساقا

وقبل ذلك ، رأيت ، ومشيت فى الطريق الذى سار فيه المسيح

عليه السلام . . طريق الآلام . . يحمل صليبه ويتهاوى تحته . ورأيت
المهد الذى ولد فيه المسيح ، ورأيت الجبل الذى ألقى فيه موعظته
الآخيرة ، ورأيت الحديقة التى تناول فيها المسيح عشاءه الأخير . .
وخانه أشد الناس حبا له ، وباعه بفلس معلودة . .

واهتز قلبي حزنا على الرسول الذى جاهد من أجل كلمة الله .

ورأيت معبد النور فى طهران . . ودخلت ورأيت سراجا منيرا
محاطا بزجاج ، وقال لى الراهب :

— هذا النور أبدي !!

وضحكت كيف يكون النور أبديا . . وأنا أستطيع أن أخذه
بنفخه من أنفى ، وأى طفل يفعل ذلك ، وكيف أعبد سراجا صنعه
إنسان ، ووضع حوله الزجاج ، وتحته الزيت ؟ ! إن النور الذى
يجب أن نعبد هو الذى وراء كل شئ . أمامنا ، ووراءنا ، وفى
نفوسنا .

إن النور الأبدي هو الله .

ورأيت معبد « زرادشت » ، ورأيت معبد « بوذا » ،
و « كونفوشيوس » . .

وفى مدينة « كيوتو » باليابان دعانى أحد الأصدقاء لأرى أحدث
ما اهتمت إليه العبقرية اليابانية فى العبادة . .

فهم في اليابان يعرفون أنهم مئات الملايين ، اليوم وغدا ، وليس
في الإمكان أن يذهبوا جميعا إلى المعابد في وقت واحد . . في
أى يوم من أيام الأسبوع . ولذلك فإن كل واحد منهم أقام معبدا
في ركن من أركان البيت . . يتوجه إليه . ويصلى . فما دام الله في
كل مكان . . ففي الإمكان أن يصلوا له في أى مكان . . في السيارة . .
في الطائرة . . في ركن من أركان أى بيت .

وسألوني : ما رأيك ؟ !

ورأيت مئات الألوف يتمرغون في طين الأنهار المقدسة ، ورأيتهم
يصبغون بالدم وجوههم ، ويحرقون بالنار أصابعهم . . كل ذلك عملا
بالحكمة القديمة : إن أسرع طريق إلى الله هو الألم !

ولكن . . أى إله ، وأى طريق ، وأى ألم ؟ !

ورأيت أحد الآلهة ، وجلست إليه ، وشربت معه ، وتحدثت .
وانتقلت منه عدوى الأنفلونزا ، وهنأتى وزراء « الدلاى لاما »
على هذا الشرف الذى لم ينله أحد من قبل (! !) . .

إنهم يعاشرون هذا الإله ليلا ونهارا ، ولكنه لم يفضل عليهم
(بعطسة !) واحدة . . بسعال ، أو التهاب رئوى ! ! ولكنى أنا
الغريب القادم من بلاد بعيدة قد حبانى بهذا الالتهاب فى أنفى وفى
حلقى ، وهذا الوحز فى جنبى . . فشكرا لقداسته على ذلك ! !

إنهم هم الذين يشكرونه بالنيابة عني !!

أين هذا كله مما أنا فيه ؟ !

لقد ابتعدت جسميا ، ونفسيا عن هذا الفيض ، والدوبان ،
والتدويب لكل ما حولى ، أو على الأصح هذا التدويب لكلى أنا ،
وما حولى كله . . إلى آخر المفردات التى يستخدمها من يذهب إلى
بيت الله الحرام .

** مثلا : الطواف ، والسعى ، والدعاء ، والوقوف ،
والإفاضة ، والنفرة ، والرمى . . وكلها مفردات تدل على أن قوة
إنسانية تندفع . . أو على أن قوة روحية تدفع هذا الإنسان معا . .
أى مع الملايين حول شئ ، وإلى شئ .

إن الدين يطلب من كل مؤمن أن يطيع ، وأن يكون معا ، وأن
يتجه إلى الله . وكل شئ " يراه ، أو حوله ليس إلا رمزا إلى معنى ..
وهذا المعنى قد نبه إليه الرسول من أجل أن يتحقق الخير العام لكل
الناس . « وكل الناس » معناها : كل الناس من كل لون ،
وسن ، وأرض ، وثوب ، وموقع ومركز ويجب أن لا يكون هناك
لون أو ثوب ، وأن لا يكون هناك شئ يميز أحدا عن أحد ،
فالناس أمام الله سواء . . كلهم قلوب تدق أو لا تدق . أما أجسادهم ..
أما عقولهم . . أما أرضهم . . أما لونهم . . فإن هذا لا يهم !

إن كل هذا الذى أقوله لم يستغرق إلا دقائق ، ولكن كم من
الساعات عشت لكى أرى ، وكم من الأيام رأيت لكى أعيش ساعة ،
أو أقل من ساعة ؟ !

إن ملايين الناس قد زاحموا ، وتدافعوا أمواجا يدوس بعضها
البعض - وأحيانا يقضى بعضها على بعض - حتى أصبح ما يشغل
الناس هو : كيف يقفون ليروا . . أو كيف يرون مكانا يقفون
فيه ، وإذا وقفوا أن يعدوا أعينهم ، أو أيديهم . . ليتأملوا أو يقولوا
شيئا .

إننى لا أدعى أنى أمضيت الأيام كلها أتأمل فى خلق الله . .
فى نفسى ، أو فى غيرى . . فلأننى لم أكن سعيدا إلى هذه الدرجة ،
ولكنى سرقت من الناس ساعات قليلة ، وحاولت أن أجعل
إحساسى بها مكثفا . حاولت أن أنفذ إلى أبعد وأعرق . ولا أدعى -
أيضا - أنى وصلت إلى شئ . . فإن الذى أستطيعه قليل جدا ،
والذى أريد أن أعرفه كثير جداً . . إن عمرى قصير . . وعمر
الإنسانية كلها قصير ، وهذا العمر القصير لا يتسع لكل ما أريد ،
ولذلك فإن القليل الذى أعرفه قد أراحنى بعض الوقت ، والكثير
الذى لا أعرفه قد عذبنى معظم الوقت ، ولا يزال ، فاللهم أغنى
على نفسى حتى أعرف أكثر ، وأستريح أكثر .

إن دهشة الناس عندما يروننى حائرا . . ضائعا ، أو أكثر حيرة ،

أو أكثر ضياعا ، لا يفوقها إلا أن حيرتني أعماق مما يرون وعذابى
أفدح مما يتصورون .

إن كل شئ " حولي يقول :

— إن كل الناس حولي يصرخون ، ويلهثون ، وهم جميعا
مفردات طائشة ملتاعة في كتاب مفتوح . إن عذابنا لا حد له ،
ولكن أكثر هذا العذاب من أنفسنا . . فتحن بعيدون عن أنفسنا ،
ولو نظرنا إلى أنفسنا ما كان حالنا هكذا .

والله يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

وهذه مناسبة طويلة عريضة أن نعيد النظر إلى أنفسنا لنعرف
أين نحن ، من أى شئ . . أين الإنسان من الإنسان . . أين الإنسان
من الشيطان . . أين الإنسان من الله ؟ !

إن زحام الناس على رجم الشيطان شئ " عجيب .

إن الشيطان ليس أمامنا فقط . إنه ليس هناك . إنه في نفوسنا ،
وليست هذه الأحجار إلا رمزا . . إن الذى رأيناه في نهاية الحج
يستحق أن نكرره بعد ذلك ، بشرط أن نرجم أنفسنا . . فكلنا
لبعض شيطان ، أو كلنا هذا الشيطان ؟ ؟

* * *

هل قلت شيئا ؟ !

إننى أحاول أن أبتعد لأرى أوضح . .

إننى كالذى يخاف أن يفتح عينيه على قرص الشمس ، ولذلك
أحاول أن أنظر إلى الظلال ، وأتحسس الدفء ، أو أنظر إليها
ببعض عيني وقد ارتسمت على الماء .

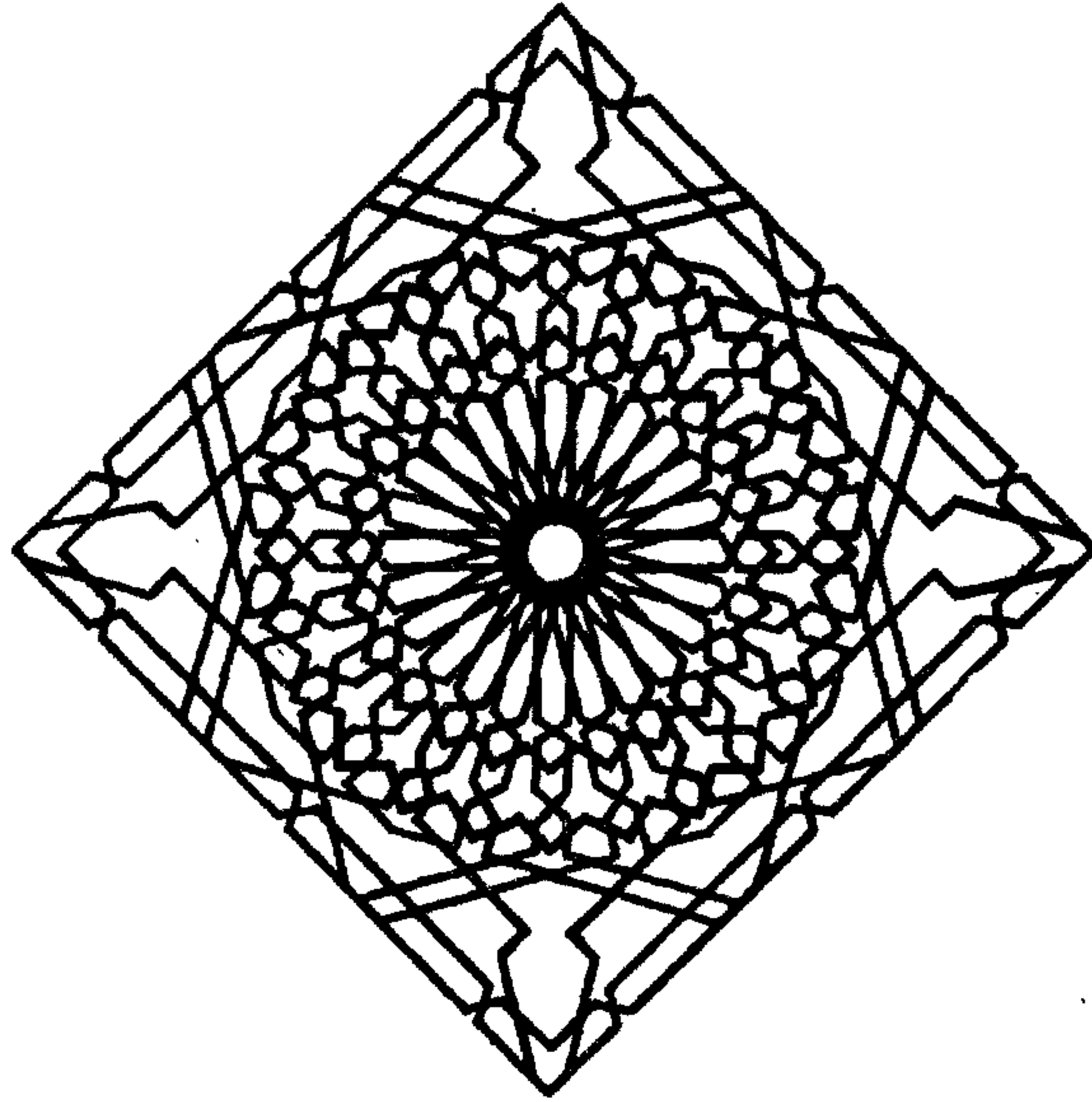
إننى أخشى أن أفتح فيها عيني . . فأفقدتهما إلى الأبد .

والذى يعزى عن هذه المحاولة . . أننى عندما اتجه إلى الله ،
فإننى أراه بلا عيين ، وأسمعه بلا أذنين ، وأحج إليه فى أى وقت ،
وفى أى مكان . .

إننى الآن أعذر ذلك الإغريق الذى حكمت عليه الآلهة بأقصى
وأقصى درجات العذاب . . ذلك المسكين (« تنثالوس ») الذى وضعوه
فى بحيرة من الماء العذب ، وسلطوا عليه الشمس ، وكلما احتاج
إلى الماء ارتفع الماء حتى شفثيه ، وكلما أحى رأسه ليرتشف الماء
. . انحسر الماء ، وظل الماء يعلو ، ويهبط دون أن يذوقه إلى الأبد !

إن شيئا من ذلك أشعر به . .

كل شئ " حولى يقول . . ينطق . . يضى " . . يظهر ، وأنا هكذا
مغمور بلا أطراف . . لا أستطيع أن أمد عينا ، أو يدا إلى شئ . .
حتى الكلمات لا أجدها . . إن شيئا قد وقع بينها وبينى ، أو بينى



وبين قلمي ، أو بين قلمي وبين الورق ، أو كل الأشياء ...
فأنا رأيت « طاقة القدر » ولم أستطع أن أفتح في ، وواجهت
الشمس ، ولم أمد عيني ، أو كأني حجبت بقلبي ، ولكني
لم أر شيئا . .

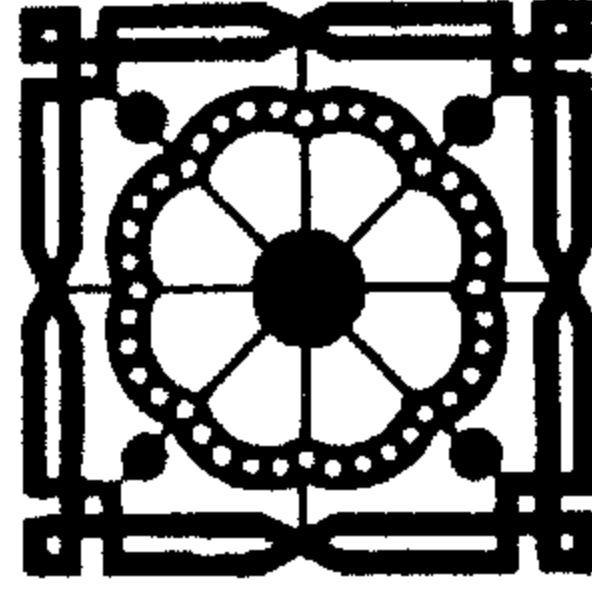
ولكن . . عندما أعود إلى حيث أستطيع أن أرى أوضح ،
وأسمع أقوى ، وألمس أقرب . . وحيث تصطف الكلمات والحروف
والنقط في خدمتي . . هناك أجدني قادرا على أن أقول . .

فمعدرة أنني أريد وأحاول ، ولكن لا أستطيع . .

فإلى مسيرة في العبارة ، والإشارة ، والإثارة ، والإنارة .

حتى هذا السطر الأخير . . لم أفقد أمل في أن أحاول . . حتى
آخر نقطة في هذا السطر !

أنيس منصور



خطوة قصيرة في طريق طويل

يقول الفيلسوف الهندي « زن » الذي عاش في الصين وانتشر دينه في اليابان :
« إننا ملايين من قطرات الندى ، استقرت كل واحدة عند تقاطع في نسيج لعنكبوت
على شجرة في غابة عرضها السماء وطولها السماء ، وعلى هذه الملايين تسلطت أشعة
الشمس . . تضيء لها قبل أن تبددها . . وفي اللحظات السريعة قبل أن تتلاشى
القطرات التي ينعكس عليها الضياء . . ضياء الشمس وضياء بعضها البعض يتساءل
الجميع : ومن نحن ؟ ولماذا هنا ؟ وإلى متى هنا ؟ وما معنى أى شيء ؟ - هي التي
تسأل . فهل تستطيع أن تجيب - أنا الذي أسأل . ولا شيء يدل على أنها تقاوم
التلاشي والاختفاء في نور الشمس إلا هذه الأسئلة والأمل في العثور على شيء
له معنى » وإلا مثل هذه السطور . .

منذ الطفولة بدأت هذه الرحلة . منذ اللحظة التي سمعت فيها ونحن أطفال كلمات :
الله والنبي والجنة والنار . . . وكانت كلها غير واضحة . . . ولكن يصحبها كثير
من وسائل الإقناع بالكلمات والابتسامات واللغات . . . من الأب والأم والأخوة
والناس . . . وانغرس في أعماقنا أن الخير جنة وأن الشر نار . وأن النبي قال ذلك
والقرآن يؤكد كل يوم . . . وأن هذه أمور لا تناقش ، وإنما نسمعها ونحفظها
ولا نهملها ، ونسكت عليها ، لأن الجميع يسكتون . . . سنوات وسنوات وهذه
الحقائق قد أصبحت كاللحم والدم ، وكالعين والأنف والأذن ، أضيفت إلى
الجسم الإنساني ، أو أقيم عليها الإنسان والإنسانية .

وأول كتاب حفظته وأنا طفل هو القرآن الكريم ، ولا أستطيع
أن أقول إنني فهمت منه شيئاً . ولكن موسيقى الآيات وروعها وتكرارها اليومي
على لساني أبقاها في ذاكرتي . . .

وجعلني موضع تقدير الجميع . . . ولم أكن أعرف أنني حققت شيئاً كبيراً إلا يوم
ذهب شيخ الكتاب يعلن لوالدي أن ولده قد أتم القرآن الكريم .

وأذكر بوضوح البهجة والسعادة على وجه الجميع . . . ولا كيف يقدمونني
عليهم . وكيف كنت أتصدر كل مجتمع ولأنتى طفل صغير أميل على ذراع والدي وأنا م .
وكثيراً ما كنت أسمع من يقول : وهل أنت حفظت القرآن الكريم . . . إن طفلاً
صغيراً قد حفظه . . . إنه رضا الله . . . وعقلك التخين ؟ . . .

فن رضا الله أنني حفظت ، ولأن عقله تخين والله غير راض عنه ، فهو لم
يحفظ القرآن الكريم . . . وكما هي عادة أهل الريف في قرية نوب طريف مركز
السبلاوين دقهلية اجتمع الشيوخ والناس الطيبون والعمدة وشيخ البلدة في بيتنا .

وكان البيت قصراً عظيماً نساكن فيه ويملكه عدلى باشا يكن ، وكان أبى مأموراً
لتفاتيش عدلى يكن وعز الدين يكن ونعمت هانم يكن . وفى ساعة مبكرة
من اليوم تغيرت ملابسى وتبدلت . . وأحسست بمن يقول لى : لا تلعب اليوم . .
فالיום يومك !

ولم أفهم من هذه العبارة إلا أننى لن ألعب ، وإلا أن الحلاق جاء وقص شعرى .
وإلا أن بعض الحلوى قد امتدت إلى جيوبى وبضعة قروش إلى يدى ، وإلى أن
النظرات تغيرت . ولم أفهم بالضبط ما هذا الذى تغير . ولا لماذا ؟ ولكن الناس
جميعاً يخفوننى ويقولون شيئاً لا أدريه . إنهم يؤكدون أن اليوم مختلف عن أى يوم
آخر . . ولكنى خفت ولم أسأل أحداً . ونجى القبلات من الصغير والكبير تغمرنى .
إن هذه القبلات قد عرقتها فقط عندما كنت مريضاً . أو عندما مات أحد أقاربى .
ورحت أبكى عليه . مع أننى لا أعرفه . ولكن رأيت أمى تبكى فبكيت . إذن
ما هذا الذى سوف يحدث ؟ ما هذا الشئ الذى تسبقه النظرات والأوامر المشددة
والتي تحذرني من اللعب اليوم . وهل هو اليوم فقط ؟ أو هو كل يوم ابتداء من
اليوم ؟ لا أعرف . . وطال النهار . . وجاء الليل على مهل . . وأضئ البيت
بالكلوبات . . وجاء أناس كثيرون . . بعضهم يعرفنى ويقبلنى ويضع الفلوس
فى يدى . . وبعضهم لا يعرفنى . . ولكن بسرعة تمتد الأيدى تشير إلى . . والقبلات
بعد ذلك . . وأنا خائف . . ما الذى ارتكبته . . لاشئ واضحاً فى رأسى فى ذلك الوقت . .

وبعد أن تعلق الأضواء جاء الليل بسرعة كأنه كان ينتظر المصابيح ليتسلل
إلى عيني وأنام فى ركن من أركان الغرفة . ويوقظنى الجميع . . وتردد عبارات
تدوى فى أذنى : يا بختك . . الجنة لك . . ادع لنا ! . .

وتحدث الناس في أشياء كثيرة . لا أعرف ماهي وتناولوا العشاء . فقد ذبحت بعض الأغنام . . وطلع النهار . وعرفت أن هؤلاء الناس جاءوا يباركون الطفل الذي باركه الله . وكان همى أن أعرف هل اليوم التالى مثل الأمس . أم أن كل شيء قد انتهى . لم أجهد نفسى في فهم شيء . فقد عاد كل شيء إلى ما كان عليه . والذى سافر . الناس اختفوا . عاودت النعب في الشارع . .

وفي العام التالى دخلت المدرسة . . وكان معروفاً لدى القليل أننى أحفظ القرآن الكريم . . ومئات من أبيات الشعر ، في مقدمتها الشعر الذى نظمته أبى في التصوف وفى الهجاء وفى الغزل . . وقصائد طويلة لشعراء آخرين . . وأعتقد أننى ماكنت أفقه منها إلا القليل . . ولكن قدرتى على حفظ الجيد من الكلام قد تأكدت . فأنا تلميذ مختلف . . وهذا واضح - أو هكذا كان المدرسون يقولون . .

والتقيت بأطفال معى من أديان مختلفة . ولم أعرف معنى الأديان المختلفة . ولا أحسست بها ونحن نلعب . ولكن ما نسمعه حولنا وفى بيوتنا جعلنى أنظر إلى هؤلاء الأطفال نظرات مختلفة . وأحاول أن أجدهم شيئاً مختلفاً . وأصبحت صداقتهم خطراً ، وأصبح التحدى هو لعبتنا نحن الصغار . فنحن نلاعب أطفالاً من أديان مختلفة وكان اللعب معهم دليلاً على أن الأطفال من كل دين هم الأطفال . وأن لا خلاف بينهم . ولكن لأسباب أخرى خارجة عن صفاء الطفل وبساطته ، نقيم الفواصل والحدود الشائكة . . ثم أصبح هذا الخلاف واضحاً . ففى حصة الدين يجتمع أطفال ، ويخرج أطفال . وعند الصلاة يذهب أطفال إلى الجامع وآخرون إلى الكنيسة وفئة قليلة إلى المعبد . . ولم نفكر ونحن صغار فى هذه الفوارق كثيراً . رغم أننا نسمع كثيراً حكايات ونوادير عن أبناء الديانات الأخرى

كيف أنهم وراء النعومة ثعابين ، ووراء السكون سكاكين . وكنا نسمع ذلك ونصدقه ، ولكن لا نجده بين هؤلاء الصغار . . وكان يقال لنا : إنهم صغار . لا يعرفون . وعندما يكبرون سوف يكتشفون ذلك !

ولا أعرف إن كان هو التحدى ، أو الشعور العميق هو الذى جعلنا ونحن طلبة فى المنصورة الثانوية نفكر فى تشكيل جمعية دينية اسمها « جمعية المفكرين الأحرار » ولا أعرف من أين اهتدينا إلى هذا الاسم الغريب . الذى لا علاقة له بالدين . أو مفروض أن ينطوى على التحرر من كل فكر سابق أو دين . ولكن يبدو أننا اخترنا هذا الاسم للدلالة على أننا بحريتنا اخترنا البحث فى الدين . وكنا أربعة . واحد أصبح شيوعياً عنيداً والثانى أصبح فعلاً من رجال الدين المسيحى . وهو الآن فى أثينا . والثالث يعمل فى الإذاعة الإسرائيلية من تل أبيب . . وأنا . . ولم يكن هناك أى تدبير أو تفكير . . ولكننا مجموعة من الطلبة نساكن فى شارع واحد فى المنصورة كان اسمه شارع كوهين . وكنت أسكن فى رقم ٩ . . جيران . ولم نتناقش فى الدين إلا قليلاً . وإنما كنا مشغولين بالشعر والفلسفة والتاريخ . . وكانت لنا عادة لا أعرف كيف تكونت وهى أن يقرأ كل واحد منا كتاباً ، ثم نجلس على النيل فى المنصورة نلخصه . ونتناقش بعد ذلك . . وتفرقنا .

وفى الجامعة لا يزال الدين نوعاً من المغامرة أو المخاطرة . أو الشئ العجيب . وقد تخصصت فى دراسة الفلسفة . أو الفلسفات والأديان . ومقارنتها . وقرأت التوراة ولا أدعى أننى أخذتها مأخذ الجد . ولكن أفرعتنى قصصها الجنسية الفاحشة . ولم أفهم لذلك معنى ولا سألت أحداً . واستهوانى من الأناجيل إنجيل بولس الرسول . وربما كان بولس أقرب كل الحواريين إلى الفلسفة اليونانية . وقرأته باللغة العربية .

ولم تعجبني لغته . وترجمته من الإنجليزية والفرنسية إلى اللغة العربية السهلة .
وما أزال أحتفظ بهذه الترجمة !

ولا أعرف لماذا فعلت ذلك !

وقرأت « دلالة الحائرين » للفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون طيب
صلاح الدين الأيوبي . وكان هذا الكتاب يستهويني طويلاً لأنه مكتوب باللغة
العربية ولكن بحروف عبرية . وكانت فرصة للتمرين على قراءة اللغة العبرية .
ولا أقول إنني فهمت شيئاً مما قرأت . ولكنها كانت فرصة لإشباع الرغبة في
التحدى ، تحدى ما سمعت ولم أفهم عن الأديان الأخرى ، وأبناء الديانات الأخرى .
وكان من أساتذة كلية الآداب في ذلك الوقت مستشرق يهودي ألماني يوغوسلافي
اسمه : باول كراوس . وكان شخصية فذة . وكنت من المعجبين به . ومن التلامذة
المتابعين له . وكنت أحضر دروسه ، ولم يعرف إلا في نهاية العام أنني تلميذ متطوع
فقط . وأن تلامذته قد هربوا منه . وكانت صدمة هائلة له . فقد ألقى الكتب
على الأرض وداسها بحذائه . فقد ظن أنني واحد من تلامذته المخلصين ، ولست
واحداً من التلامذة المخلصين للعلم فقط . وكان يدرس « لى » في ذلك الوقت :
ابن الهيثم والرازي وابن المقفع والحلاج . . وكان يأمل في أن اشترك معه — أنا
الصغير — في إعداد قاموس يوناني — عربي عن الكلمات التي استخدمها المترجمان
إسحاق بن حنين وحنين بن إسحاق والمعاصرون لهما . عندما نقلوا الحضارة اليونانية
إلى اللغة العربية !

وبهرتني دراسة الفلسفة . وأحسست أن أنواعاً جديدة من العدسات الملتصقة
قد ركبت لعيني . وأن دنيا جديدة بألوان جديدة ومسافات جديدة قد ظهرت .

ومن العجيب أنها ظهرت في نفس الأماكن التي اعتدت ألا أراها فيها . الناس لهم معنى آخر . العلاقات لها دلالة أخرى : الله والعالم والناس والقيم الأخلاقية والقيم الجمالية والنفس والحياة والموت والمادة والروح والعظماء والأبطال والأنبياء والقديسون والحواريون والصحابة والتابعون والدرأويش . . . وقفزت كلمة جديدة أصبحنا نسرف في استخدامها بلا خوف : الاتحاد . . .

وشجعنا على استخدامها أننا كنا نتردد على بيت الأستاذ العقاد في مصر الجديدة . كان هو لا يبالي بشئ . وفي إحدى المرات أخذ الأستاذ العقاد يتكلم عن الله والسماء والأرض . ويقول : كيف يخلقني الله في عصر يعيش فيه هؤلاء البهائم — ويشير إلى عدد من الحكام والوزراء وأساتذة الجامعة !

وعندما يفرغ الأستاذ العقاد من هذه العبارة كنا نشعر أن السماء لا بد أن تنطبق على الأرض . . . أو أن بيت العقاد يجب أن يتهدم فوراً . فقد قال العقاد شيئاً رهيباً . . .

وأذكر أنني أحسست أنني فقدت السمع والبصر عندما قال الأستاذ العقاد مرة في إحدى حالات غيظه : لو أعطيت المادة الأولية لهذا الكون لصنعت كوناً أجمل من هذا ؟! . . .

وقد ضربنا الأستاذ العقاد على رؤوسنا . بل إنه فتح رؤوسنا وأسقط منها الخوف . ثم أعادها إلى مكانها . . . أو إلى مكان آخر من أجسامنا ، دون أن يدري . ولم يكن العقاد إلا مفكراً عظيماً ، وموثقاً عظيماً . ورائداً عظيماً . فقد أضاء لنا كثيراً . وشجعنا . ودفعنا . وملاً عقولنا بالفكر . وملاً الفكر بالاعتزاز . وجعل المفكرين في قمة البشر . وكان ذلك شعورنا عندما نذهب إلى منزل العقاد (١٣ سليم الأول

في مصر الجديدة) فقد كان اجتماعه يوم الجمعة من كل أسبوع . وكانت المصالح الحكومية تضع الأعلام بمناسبة هذه الأجازة . وكنا نقول لأنفسنا : إن من يذهب إلى العقاد يجب أن ترتفع الأعلام لتحيته !

وفي هذا الوقت أيضاً ظهرت شخصية قريبة منا ولنا . ولكنها شخصية شائكة . بلا أبوة ولا أخوة . ولا إنسانية أيضاً . شخصية أرادت أن تكون باهرة دون أن تهدي أحداً . عالية دون أن يقرب منها أحد . شخصية أرادت أن تكون هناك فوق . ولا يهمها كثيراً أن يكون أحد مثلها أو قريباً منها . إن هذه الشخصية تشبه « الله » الذي تحدث عنه الفيلسوف أرسطو . فقد كان أرسطو يتصور الله على أنه جالس هناك فوق . وقد أدار ظهره للكون . وهو يدير الكون بظهره - احتقاراً منه لشأن الكون والكائنات . ولأن الذي ينظر إلى شيء ، معناه أنه يهتم به أو يحتاج إليه ، والله لا يهتم إلا بنفسه ولا يحتاج إلى أحد . فالذي يحتاج إلى شيء ، هو الناقص ، والله كامل ، إذن لا حاجة به إلى شيء أو إلى أحد . .

ولذلك فأرسطو قد صور الله عالياً بعيداً أدار للكون قفاه . وترك كل شيء يجري في القواعد التي وضعها له . .

هذه الشخصية التي تشبه آلهة أرسطو هي : د. عبد الرحمن بدوي . .

فقد كان يدرس لنا الفلسفة اليونانية . . والفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية والفلسفة الوجودية . . لقد كان يهزنا بعنف . يهزنا ويتركنا نلهث وراءه . فهو حاد الملامح . سريع الحركة . له نظرات خاطفة لا مبالية . وإذا حاول أن يكون رقيقاً كان جارحاً . ولكنه كان ساحراً لنا . وكان يرتدى بدلة زرقاء - رأيناها أكثر من عشر سنوات - وطربوشاً أحمر قائماً . ويمشي بخطوات سريعة آلية . فإذا دخل

القاعة . لم ينظر إلى أحد . لقد جاء ممتلئاً بالعلم . وعلينا أن نستمع . وأن نكتب . وهو يفتح فيه عندما يذق الجرس . ويطبقه عندما يذق الجرس . وكنا نهابه . ولا نعرف كيف يمكن أن يكون للإنسان مثل هذا العلم يوماً ما . وقد حاولنا أن نقلده . وأن نخطو خطواته . وأن نحبه وأن نكرهه . ولم يكن هناك اعتدال في العلاقة به . ففريق يحبه جداً . وفريق يكرهه جداً . .

وأعتقد أنني كنت من الذين يعجبون به . لأن حبه صعب . فالحب يقتضي أن يكون هناك تفاهم ومودة واقتراب أكثر وتضحية واعتياد عليه . ولكن لا شيء من ذلك ممكن . فهو بعيد وحريص على ذلك . ونحن لا نستطيع أن نضيف إلى الإعجاب به الهوان معه . ولذلك ظل هو هناك وظللنا نحن بعيدين عنه ووراءه . .

ولا أعرف بالضبط ما الذي كان يمثله لنا د. عبد الرحمن بدوي في ذلك الوقت . وكل ما يمكن أن يقال عنه أنه « موسوعة » فلسفية . . وذاكرة غير طبيعية . وقطرة خارقة على التحصيل ، ويستمتع بكراهة الكثيرين . وفي مقدمتهم الأستاذ العقاد . وكان ذلك صدمة لي . فلم أكن قد تعودت أن يزغزغني أحد في البديهييات . وكان العقاد من البديهييات . وعبد الرحمن بدوي من البديهييات أيضاً . ولم أعرف كيف أوفق بين الاثنين . ولكن العقاد كان أقرب . فأنا أجلس إليه . وأتحدث معه . وأداعبه . وهو يروي لنا النكت . ويحدثنا عن السياسة . ويسأل عنا . إنها أبوة لا نظير لها . ولكن عبد الرحمن بدوي لا هو أب ، ولا يستطيع ، ولا هو أخ ولا هو صديق . ولا أعرف كيف يمكن أن يكون هناك لقاء معه أو لقاء به . . ولكنه شخصية تستحق الإعجاب والدهشة . .

وأصبح عبد الرحمن بدوي مثل كل الأبطال الذين نقرأ عنهم ولا نجدهم

في حياتنا . . إذن هو شخصية أسطورية . يبدو أنه كذلك . لأن أحداً لم يره يمشي في الشارع أو يجلس في مطعم . ولكننا نجده في المكتبات دائماً . وبسرعة تغيرت الصورة فقد وجدته في الشارع وفي المطعم . ووجدته يضحك ووجدت من أصحابه من يخرج معه « ويشتمه » كما يفعل الأصدقاء . . ووجدته حريصاً على المال . . إذن لقد تساقطت علينا معلومات كثيرة تشجعنا عليه وتهز أكتافنا إذا رأيناه . . إنه إذن واحد ككل الناس . . وبطولته الأسطورية من صنع أوهامنا . . بل إننا جلسنا إلى أستاذ آخر على أعشاب كلية الآداب ، وكان يقرأ لنا الرسائل التي ترجمها للشاعر الألماني ريلكه - ولم يكن هذا الأستاذ يعرفنا . ولكنه رجل بسيط استراح إلينا . إنه د. عبد الهادي أبو ريده ، أستاذ الفلسفة الإسلامية في ذلك الوقت . . كيف فعل ذلك ؟ وكيف لا يفعل غيره ذلك !

وأصبحت من الأسماء الحسنى على ألسنتنا في ذلك الوقت : نيتشه وشيلر واشبنجلر وهيدجر ودلتاي وتسيلر . . وغيرهم من الألمان . الفلاسفة والمؤرخين . إذن لقد وجدنا أنفسنا غارقين في الفكر الألماني .

وأقبلت على كل ما هو ألماني : اللغة والأدب والفلسفة . وأصبح طلبة الفلسفة متميزين بعضهم عن بعض . نحن المثاليون الغارقون في الإيمان بالمنطق والفكر المجرد والبطولة والصوفية ، والآخرون ماديون واقعيون منطقيون شعبيون .

ولا أظن أن كل هذه المفردات كانت واضحة في رأسي في ذلك الوقت . بل لا أعرف أين رأسي من قلبي ، وأين قلبي من عقل عبد الرحمن بدوي في ذلك الوقت . لقد انشغلت رؤوسنا وامتألت وازدحمت ونحن ننوء بها راغمين غادين من المكتبة وإلى البيت .

وبسرعة انتقلت إلى الفلسفة الوجودية . وهذا طبيعي . فالضياع بين الأفكار والمذاهب وتعدد آلهة الفلسفة وعلم النفس وتعدد القبلات والعبادات والكتب الفكرية المقدسة قد محا كل معالى . ولم أعد أعرف من أنا . فأنا مثل طفل يتغير اسمه كل يوم . فهو لا يعرف له أباً ولا أمّاً ولا بيتاً ولا لغة ولا وطناً . إنه ابن الجميع . ومن صنع الجميع .

وكان لابد أن يتوقف الإنسان عن الجرى وراء كل هذا الذى قرأ وسمع . . وأن تنخفض درجة حرارته . . وأن يلتقى بالماء المثلج على رأسه ليفيق من هذه الحمى الفلسفية . . وأن يفتح مظلمته الواقية ليهبط برفق على أى أرض صلبة . . أى أرض . . فقد تعب من الدوران حول الذى لا يعرفه . . فليس لى كوكب واحد أدور حوله . . إتنى أصحو . وأنام وفى أثناء النوم يتغير الكوكب الذى أجد نفسى ألف حوله . . فلا أعرف إن كنت من رواد الأرض أو القمر . . الفلسفة الألمانية أو الفرنسية . . الهندية أو الفارسية . . الإيمان أو الإلحاد . . مصرياً عربياً ، أو مستشرقاً أو « مستغرباً » مهاجراً أو مهجرياً أو مقبلاً مصرياً وطنياً أو مطروداً من لغتى وأصلى وتاريخى . .

وفى الفلسفة الوجودية وجدت أننى أقول : إتنى . . وأقول بحرية . . حياتى . . تاريخى . . حاضرى . . إرادتى . . دينى . . ربى . . مصيرى . . مستقبلى . . نهايتى . . موتى . . قلقى . . فزعى . . وجودى وعدمى . .

فى الفلسفة الوجودية أكدت نفسى . . فى مواجهة الذين يحررونى من كل اعتزاز برأى أو بفكر . . كيف يكون لى رأى أمام فيلسوف عظيم مثل هيجل أو ماركس . . أو نيتشه أو شوبنهاور . . أو أفلاطون أو رسل أو بيكون أو اسپينوزا . . كيف

أنهم تفرغوا للذى لم أستطع أن أتفرغ له . . أضعوا العمر وأضاءوه بالفكر والوجدان . . أين أنا منهم ؟ كيف أمد يدي في جيبي وأخرج ملايمي العقلية وأنا واقف أمام خزان البنك المركزى . لا بد أن أنشغل بما يملك غيرى . . وأن أتحدث عن ثرائهم ، وفى الحديث عن ثرائهم إخفاء لفقرى وعجزى وإفلاسى . . لم يكن من السهل أن أتحدث عن نفسى أو عن الذى فى داخلى أو الذى أريده أن يكون فى داخلى .

وجاءت مع الدكتور عبد الرحمن بدوى « الفلسفة الوجودية » . . والتقطنا الكلمة . . والمفردات التى أدخلها إلى الفلسفة . . وكانت هذه الكلمات تأشيريات دخول وخروج من كل المذاهب الفلسفية والدينية . . ندخل ونخرج كما يحلو لنا . . فلا خوف . . فقد طلينا أجسامنا بالشحم . . فلا خوف من الفرق . . إن أطواق النجاة فى أعناقنا ، فلا خوف أن يجرفنا التيار . . ومن صدم حرياتنا أيضاً أن نقبل ونرفض ما أعجبنا من كل ما كتبه وقاله د. عبد الرحمن بدوى والعقاد وغيرهما !

فقد تجرأت فى إحدى المرات وسألت العقاد - لعلك تلاحظ إننى لم أقل الأستاذ العقاد - وناقشته فى كتاب صدر له . . ولم يكن الغرض من السؤال أن أقول شيئاً إلا إننى قرأت الكتاب وفكرت فيما قرأت . وأن لى رأياً خاصاً . ومهما كان هذا رأى فهو وجهة نظر لطالب صغير فيما كتبه أستاذ كبير . ومن الممكن ألا أحسن السؤال . . ومن الممكن ألا أحسن الفهم . . ولا يمكن أن أكون مستخفاً بالعقاد أو أحاول أن أخرج - لا شئ من ذلك !

وثار العقاد . . لدرجة أننى لم أعرف ما الذى قاله . . وارتفع الدم فى رأسى طويلاً . . وبعد وقت قصير وجدت العقاد يتحدث فى شئ آخر ويضحك . .

وانتهت الجلسة . . وفهمت من زملاء ندوة العقاد أن العقاد لم يكن على حق . . وأنه
ثار بلا سبب واضح . . وعرفت في ذلك الوقت أنه هو أيضاً من الممكن ألا يكون
على حق وأن يثور لسبب ولغير سبب . . ولكن - مع ذلك - فزايه أكثر
من عيوبه . . ولم أمتنع عن التردد على بيت العقاد !

وأذكر أنني ناقشت في إحدى المحاضرات رأياً للدكتور عبد الرحمن بدوي . .
ولا أعرف ما الذي قاله . . ولكن لا يمكن أن يكون شيئاً مشجعاً . . وأدهشني
ذلك . . ومن غضب الطلبة وضيق المدرسين بعبد الرحمن بدوي ، تجمعت
قدراتنا على الانفصال عنه . . رغم التأثير العميق به . .

ولم يعجبني كتابه عن « الوجودية » وأصدرت أنا كتاباً عن « الوجودية »
وكان أسهل كتاب وأول كتاب صدر عن الوجودية باللغة العربية . ووزعت
منه أكثر من مائة ألف نسخة في سنة ١٩٥٣ !

وما كتبه عبد الرحمن بدوي عن الوجودية لا يفهمه إلا الذين درسوا الفلسفة ،
أما الناس العاديون فيستحيل أن يفهموه . . وأعتقد أنني أستطيع مالا يستطيع
وكتبت . : إنني إذن اختلف عنه تماماً ، ولا يمكن أن أكون مدرساً للفلسفة
مع أنني قت بتدريس الفلسفة اليونانية والحديثة والفلسفة الوجودية في كلية
الآداب سبع سنوات . ولكن قررت ألا أكون مدرساً . . فأنا لا أحب ولا أستطيع
فهي مقدرة خاصة ، وأنا أريد أن أكون أكثر انطلاقة فقد تعددت القيود على عقلي
وقلبي ولساني ويدي وساق . . قيود الطفولة والدين والفلسفة . . قيود الحب
والإعجاب والإيمان بالبطولات الفكرية . . وأريد أن أتححر من الأوثان الإنسانية . .

دون أن أحطمها . . فلا أستطيع . . ولست نبياً ولا صاحب دين جديد . . ولا قادراً
على صنع تماثيل أخرى ، لى ولغيرى . .

ولكن طالت سنوات الفلسفة . . والتوت سنوات الكفاح من أجل أن أجد
نفسى . . قارئاً وكاتباً . . وانشغلت عن كل شئ إلا القراءة . . وكان والدى يقول
الحكمة المأثورة : منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال ! وكنت أنا طالب
العلم . . ولم أعرف إلا متأخراً جداً أن الإنسان يجب أن يطلب المال ، ليستطيع
به أن يجد العلم فى الكتب أو فى السفر بين البلاد وبين الناس ، لأقرأ هذا الكتاب
المفتوح الذى اسمه : العالم . . والذى صنعه الإنسان بيديه ورجليه وعرقه ودمه
ودمه - ودمه أكثر - طلباً للحرية من الفقر والخوف والمرض والجهل والظلم . .

وابتعدت كثيراً جداً عن عيون الناس لأجد نفسى . . وأنعمت عيني عن كثير
من الذين أحبه ، لعلى أجد شيئاً أو أحداً أحبه . . وعرضت جسمى لكل شمس ،
وأعطيت أذنى لكل صوت ، وعلقت أجفانى بكل صورة . . وأعطيت
نفسى ، بذلتها ، بددتها ، أرهقتها ، بعثرتها ، نثرتها ، لكى أجمعها وأمسكها
وأحرص عليها من جديد . .

ولكنى لم أجد إلا ما يفرغنى ، وإلا ما يخيفنى . . فبحثى عن الحرية حررتنى
من الحرية نفسها . . فوجدت نفسى عبداً حبيساً مقيداً بكل هذه الكلمات التى
وجدتها فى الوجودية . . حتى أصبحت الوجودية هى لغتى . . ولا أعرف
غيرها . . والذى ليس وجودياً ، فلا وجود له . . فالناس نوعان وجوديون ،
ولا وجود لهم . . ولكن كيف ؟ هل كل من يختلف معى فى رأى ، لا رأى
له ، ولا معنى له . ولا وجود له . إذن أين هى الحرية . . هل الحرية أن أكون

أنا حراً ، ولا حرية لغيرى . إذن ليست حرية هذه . . الحرية لى ولك . . أن
اختلف معك أو اتفق معك . . إذن فهذه الوجودية التى تنادى بالحرية تسلبها منى
فى أول لقاء . .

ثم هناك أكثر من فلسفة وجودية . .

وجودية ترى أن الله ضرورى ، وأن الأديان أساليب حياة بين الناس . .
ولابد لكل إنسان من أسلوب فى الحياة . . والدين أسلوب حياة الشعوب . . لأنه
أسلوب حياة الأفراد . . وهناك وجودية ترى أن مشاكل الإنسان العادية معقدة
وصعبة . . وأنه لا يستطيع أن يحلها كلها ، فكيف يضيف إليها مشاكل أكبر منه
مثل : الله والكون والموت والقيامة والبعث والحشر والنشور . . إن الوجودى
العاقل هو الذى يعرف أن عقله قاصر ، وأن الله فوق العقل . . وأن الطفل الذى
لا يعرف كيف يحفظ جدول الضرب ، لا يعرف أن يحسب المسافة بين الأرض
والشمس ذهاباً وإياباً على أصابعه . . وأن العقل الذى لا يعرف ماذا وراء الشمس
أو الشمس ، أو لا يستطيع أن يقيس السماء شبراً شبراً ، لا يعرف من هو الله
وما هى « حدود » قدرته . . إذن يجب أن تنشغل الوجودية بحياة الناس . . فقط
الحياة ، أما ما بعد الحياة فهو شئ بعد العقل . . ونحن لا نملك إلا العقل فقط !

والذى أقوله اليوم فى سطور ، قد أقام سنوات طويلة فى رأسى . . هزه وقسمه
بعضه على بعضه . . واسقطه على كتفى ، وكسره على يدى ، وأحناه على الورق ،
وأضناه على مشاغل الحياة والسعى وراء الأمان تسحب منى لحظات الإنفراد
بنفسى . . وتلقينى على الآخرين معهم وبينهم . . وطالت السنوات . . ورحت
أطالب نفسى بتعويض عن سنوات الشقاء والعذاب والحرمان . . وانطلقت من

نفسى بعيداً عن الناس وعن الأرض وعن الأهل وعن مصر . وسافرت وانفتحت
نفسى على كل شئ هناك . وأصبحت لى عادات جديدة فى الحياة وفى الفكر . .
ومن بين هذه العادات الجديدة أن أتابع كل ما تخطه أقلام الناس فى الشاطئ
الآخر الذى أسافر إليه . . . والذى يلفت الإعجاب به والحياه معه . . . والسير على
هداه . . . فما من مفكر كبير ظهر فى ربع القرن الماضى إلا وأعرف عنه شيئاً
كثيراً ، أو ألا أجد له كتاباً أو أكثر فى مكتبتى . . . وكان من عادى أن احتفظ
بصورهم . . . وبعد ذلك توقفت عن هذه العادة الصبائية . فقد أغنتنى كتبهم
ودوائر المعارف عن ذلك . . .

أذكر أننى ذهبت إلى « الدير الدومنيكى » فى العباسية . . . وكنت أدرس الفلسفة
المسيحية هناك . . . وفى يوم وجدت صورة لرجل أعجبت به جداً . . . وأريدها . . .
ولا أعرف كيف أحصل عليها . . . ولا أستطيع أن أشتري الكتاب الذى وجدتها
فيه . . . وطلبت من الصديق الأب قنوائى أن أقتنى هذه الصورة . . . وكانت ضحكته
الساخرة مقنعة لى . . . إذ كان معناها : كيف أنزعها من هذا الكتاب أو كيف
أعطيك هذا الكتاب حتى لا تنزعها .

وقررت أن أدع الكتاب مفتوحاً ، لأنظر إليها من حين إلى حين . وبعد ذلك .
اشتريت كل مؤلفات الأب تيلاردى شاردان وقرأت أروع ما كتب . . . ووجدت
أن أفكاره أروع من صورته . . . فهو عالم ورجل دين وفيلسوف وهو قبلة مضيئة . . .
تضى بعنف !

وتوالت الكتب التى تصور قلتي وفزعى وحيرتى . . . واختلفت الآراء حول
هذا الذى يملأ نفسى ويفيض بها على الورق . . . ولم يكن سبب ذلك إلا الغليان

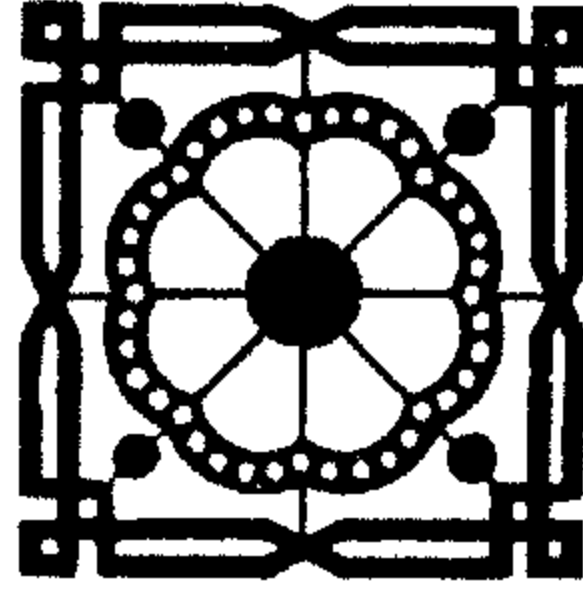
فى داخلى . . إلا براكين فى أعماقى ترمى بالحمم على الورق ولكن هذا العذاب هو من شأنى أنا . . فالكاتب يتعذب ويكتوى ويتأوى ، ولكن إذا واجه الناس عليه أن يقول ما يريح الناس ويفيدهم فى حياتهم أو يهديهم إلى ما هو أفضل . . فالذى يقدم طعاماً للناس لا يعرض عليهم أدوات المطبخ ، ولا يأتى بالقرن بينهم . . فيصيدهم شرار من النار . . فليس هذا من شأنهم ، لأنهم يريدون أن يأكلوا . .

ولكن الكاتب يريد أحياناً أن يعرض على الناس صوراً من عذابه ومن براعته فى التخلص من العذاب لعلهم يفعلون مثله . . أو لعله يشعر فى لحظة واحدة باقتدار على أن يفعل ما يعجز غيره عن فعله . ولذلك نجد الكثير من المطاعم تقدم الطعام وتطهوه أمام الناس . . ويرى رواد المطاعم أن المسافة بين المطعم والمطبخ قليلة . . وأن المودة بينهم وبين الطاهى عميقة . . فلا مسافة هناك . . لأنهم أسرة واحدة . . وهذا ما يغرى الكاتب فى كثير من الأحيان أن يؤكد للقارئ لعله يستريح - القارئ يستريح والكاتب أيضاً !

وقد فعلت ذلك كثيراً ، ولا أظن أننى استرحت . . لقد كان كل ما أقرؤه هو نوعاً جديداً من الوقود . . يجعل النار أكثر التهاباً ، ويجعل ألسنتها أكثر تلوناً ، وزئيرها موسيقياً . . كأننى أقوم بتجميل الشقاء لنفسى ولغيرى . . حتى أصبح هذا التجميل أو « التعذيب » - أى جعله عذاباً - أسلوباً فى الحياة . . وطال هذا الأسلوب . . وكان لابد أن أهرب منه .

وتوالت كتب أخرى تصور هربى من عذابى . . هربى من حياتى . . ولكن لم أجد لنفسى مخبأ عقلياً أو عاطفياً . .

وبدأت دورة جديدة فى التردد على المعابد من كل دين . .



وزاب الشمع الذى وضعته في أذني؟!

أصيب الفيلسوف الألماني نيتشه بالجنون في آخر أيامه . وفي قترات الوعي العابر والاتزان المؤقت ألف كتابه الرائع الجنون والحكمة والذي عرف بعد ذلك باسم « أختي وأنا » . وكانت أخته أيضا على درجة من الجنون . فقد احتشدت الآراء والقراءات والانفعالات في عقله وصدره حتى انفجر بكل شيء .

وانطفأ نور عقله ونور عينيه ..

يقول نيتشه : ما الذى جرى ؟ إننى مثل عوليس بطل الألياذة . وقد نصحوه أن يضع الشمع في أذنيه حتى إذا اقترب من المغنيات الساحرات ، لم يقفز من سفينته ويروح ضحية هن . وقد حرص عوليس على أن يربط نفسه إلى شراع

سفينة وأن يقترب من الساحرات . ولكن حدث شيء غريب .. فبدلاً من أن تتغنى الساحرات ، فلأنهن التزمن الصمت . وعرضن الوجه الجميل والشعر الحريري ، والأجسام الفاتنة . ولم ينطقن بكلمة . وإنما تركن الكلام لبقية أعضاء الجسم .. فإذا حدث لعوليس .. إنه اندفع بسفينته وتحطم على الصخور التي جلست عليها الفاتنات الساحرات .. ولم ينفعه الشمع الذي ملأ به أذنيه ، ولا الحبال التي التفت حول جسمه ويديه .. لقد دخلت الساحرات من عينيه دون كلمة واحدة .

ولا أقول إننى هذا العوليس الذى سد أذنيه بالشمع وربط نفسه بالحبال حتى لا يفتنه شيء مما رأى . ولكن هذا الشمع كان طبيعياً فى حياتى . فأنا أريد أن أعرف فقط ولم يكن عندى استعداد لأن أصدق . أو لأن أهتز وأسقط راكعاً أو ساجداً . فقد كان أبى رجلاً مؤمناً . ولا أعرف لماذا لم يكن حريصاً على أن يدفعنى فى طريقه . فقد كان حبي له يجعلنى أفعل كل ما يقول به . وتعلمت منه شيئاً واحداً مع الأسف الشديد أو مع كل الأسف : أن أصحو فى الساعة الخامسة من صباح أى يوم . كان يصحو للصلاة وتلاوة القرآن وشرب الشاي بالنعناع وكنت أحب والدى ، وأحب صوته وهو يرتل القرآن وأحب النعناع فى الشاي ..

وكنت أصلى وراءه .. ولا أعرف بالضبط ما الذى كنت أعمله ، أن أمحو معه وأجالسه . وأنا م بسرعة وينقلنى إلى السرير .. هل هى حاجة إلى مزيد من العطف ؟ هل سبب ذلك أن والدى كان دائماً بعيداً عنا . نسكن فى بلد وهو يعمل فى بلد آخر . هل هو الشعور بالأمان إلى جواره . ربما كان انعدام الأمان هو الذى جعل طفولتى خائفة . ولم أكن وحدى الخائف . ولكن أبى أيضاً . فنحن ننكمش ونتكوم بعضنا إلى جوار بعض خوفاً ولكن من أى شيء كنا نخاف ، لا أعرف فى

ذلك الوقت بوضوح . ولكن كنا حريصين على إقفال الباب والشباك . وكنا نتواصى
بألا نسرف في الإنفاق . حتى نجد فلوسا في آخر الشهر . ولكن لماذا كل ذلك ؟
لم أعرف . ولكنه الخوف قد تسرب وترسب في نفوسنا . ربما هذا الخوف الدائم
هو الذى جعلنى أتجه إلى شئ ما يجعلنى آمنا . وهذا الأمن لم أجده إلا فى القراءة
وإلا فى المذاكرة وإلا فى معرفة الكثير . وكنت تلميذا متفوقا من الظاهر ، خائفا
من الداخلى .. هذا الانشغال الدائم بالجهول ، والجهول كله مخيف . هو الذى جعلنى
أتسلح دائما بشئ وليس من الضرورى أن أحب ما أتسلح به ولكنى كنت كالذى
يخاف من البرد - ولا أزال - فيضع كل ما يصادفه من ملابس وأغطية . فلم
أكن أعنى بقيمة هذه الملابس أو جمالها أو ثمنها . إننى فقط أسد الباب فى وجه
الريح ..

والذى كنت أفعله فى البرد ، كنت أفعله أيضا فى القراءة والرغبة فى المعرفة .
أريد أن أحتفى فى الكتاب وأتسلح بالمعرفة .. فقط المعرفة سلاح ولكن لم تكن
متعة ولا لذة .

وكنت أسمع - ولا أفهم - إننا من الأشراف فجدى لأبى صاحب ضريح
يزار . بل فى أسرتها أكثر من ضريح وأكثر من ولى وأكثر من رجل صالح .
فهى من أسرة الباز فى الدقهلية ودمياط . وفى الأعياد الدينية كان الناس يشيرون
إلينا ، على أننا متميزون عن الناس فنحن أشراف . وكان أجدادى لأبى من
الأشراف أيضا . ومن الأولياء وهم ينحدرون من الإمام شمس الدين الشربينى
فى مدينة شربين . ولم أكن أفهم معنى لشئ من ذلك .

ولا أنسى يوم أخذنى والدى إلى مسجد فى أبو حمص من محافظة البحيرة ،

وكان إمام المسجد اسمه الشيخ روحه . وقدمني والدي مع كثير من الاعتزاز وهو يقول : ولدي صلاح - وكان هذا هو اسمي في ذلك الوقت ولكن أمي بعد ذلك رفضت أن يكون لي اسمان - ولدي صلاح هذا قد حفظ القرآن الكريم والهمزية النبوية والبردة للبوصيري وقرأ كتب أدب الدنيا والدين والسيرة النبوية لابن هشام ودلائل الخيرات .

وكان رد الشيخ روحه : إن هذا من دلائل الخيرات !
وأعجبني هذا الرد وحفظته على أنه أول مديح بليغ . ولا أعرف بعد ذلك لماذا كان بعض الناس الطيبين يطلبون مني أن أؤمهم في الصلاة وأنا صغير . ولكن عرفت فيما بعد أنني أفضل منهم لأنني أحفظ القرآن الكريم .
ولم أدرك في ذلك الوقت إن كان هذا كل ما يسعدني . فلا أعرف قيمة ما حصلت عليه . وإنما أنا طفل ذاكرته قوية ، أو هو محب لوالده وسمع منه أجمل أنواع الكلام : قرآنا وأحاديث نبوية وشعراً وحفظ وراءه وأسعدته سعادة أبيه .

وعندما سافرنا إلى طنطا ، تسلت وحدي إلى جوار مسجد السيد البدوي . ووقفت أقرأ الفاتحة . وأدعو الله أن يشفي والدي ووالدتي . وأن أنجح في مدرسة السيدة مباركة الأولية . وبعد أن فرغت من الدعاء اكتشفت أنني توجهت إلى محطة سكك حديد طنطا . فلم يكن هذا هو ضريح السيد البدوي . ورويت ما حدث . وضحك أبي وكان حريصاً على أن يروي هذه النكتة لكل الناس . وكان الناس يطيبون خاطري قائلين : ولكنك توجهت إلى الله . والله في كل مكان !

وفي امبابة كنت في « جمعية الإخوان المسلمين » . وكنت أمينا للمكتبة . وألقيت قصيدة أمام الشيخ حسن البنا . وكان رجلاً ظريفاً لطيفاً . ووفق لقصيدتي عن

الهجرة النبوية . وطلب منى أن أذهب للقائه فى المركز العام فى الحلمية الجديدة .
وذهبت ولم أستطع أن ألقاه . ولكنه نصحنى بأن ألتقى بواحد من الإخوان وأطلب
إليه أن ينشر قصيدتى . وكنت سعيدا عندما ظفرت بالأخ . وكانت
جريدة « الإخوان المسلمين » تطبع فى الجورنال ديجيت . وظللت حتى الصباح
أنا وبعض الأصدقاء واقفين أمام باب الجريدة حتى صدرت . وقلبت فى الصحيفة
فلم أجد القصيدة . وكانت صدمة وخيبة أمل كبرى . مع أن الأخ .. قد
وعدنى ، فكيف يخلف وعده ولا ينفذ أمر الشيخ حسن البنا ..

وبعد أسابيع قليلة وجدت اسمى على باب مقر جمعية الإخوان المسلمين بامبابة
من المفصولين والذي يرجى ألا يترددوا على الجمعية إطلاقا . وكانت مفاجأة
مفرعة . وعرفت السبب فيما بعد . هو أننا لا نوذى الصلاة فى أوقاتها .. ثم إننا
نستغل مكتبة الجمعية للمذاكرة ونستهلك الكهرباء ولا ندفع الاشتراكات .
واتصل بى أحد الإخوان المسلمين وقدمنى إلى موظف فى شيكوريل . وقال :
لقد حدثته عنك كثيرا .

ولم أسأله وما الذى قاله عنى . وذهبت إلى بيت الموظف الآخر . وكان يسكن
فى شارع محمد على . وهو يهودى . ويروج للماسونية فى مصر . ودخلت البيت .
وكان نظيفا . وقابلنى مرحا ، ولكن لم أجد هذا المرح على وجه أحد فى البيت .
لا زوجته ولا أولاده . وأعطانى بعض الكتب الفرنسية . وطلب منى أن أقلب
فيها . وقلبت ولم أفهم . ولكن الذى بهرنى جدا فى ذلك الوقت أننى وجدت لأول
مرة فى حياتى ، فاكهة جافة . فاكهة مصنوعة من الحجر وملونة . شئ عجيب .
وهذا الشئ العجيب هو الذى ظلت أحكيه للناس . ومن الغريب أن كل

الذين حدثهم عن هذه الفاكهة لم يندهشوا . فقد رأوها من قبل ، أو موجودة في بيوتهم . وفقدت حماسي وطويت لساني تحت أسناني . ولم أعد أتحدث عن هذه المعجزة !

ولا أدعى أن هذا الشمع الذي وضعته في أذني . أو الذي كان في أذني ، قد بقى في مكانه ولكنه تحرك قليلا . ونفذ إلى أذني بعض ما سمعت وما قرأت . وما رأيته . ولكن ما يزال الشمع في موضعه متينا صلبا يصعب أن أخرجه ..

وعندما عدنا إلى المنصورة كنت مبهوراً بإمام مسجد « الحسينية » صوت غليظ أجش واضح . وكان فخم العبارة . فصيحاً . والناس يجيئون من كل مكان ليسمعوه . وكان اسمه الشيخ محمود ، ولا أعرف لماذا يحرص الناس عادة على تشويه الجميل . فقد همس في أذني واحد من الناس وقال : إنه أكبر حشاش في المنصورة .. و ..

وقبل أن أقاطعه بدهشتي قال : تعال الليلة وأنت تراه فوق السطوح .

ولم أتم قبل أن أراه جالسا على أحد الأسطح يضحك ويتمايل . وكان من الصعب على مثلي في هذه السن الصغيرة أن أضع الصورتين الواحدة إلى جوار الأخرى . وأقبلهما . كيف يكون هذا الرجل مفخرة ومسخرة في نفس الوقت ؟ !

وعرفت أن رجال الكنيسة الكاثوليكية يستغلون الظروف أيضا . فعندما تذهب فتاة للاعتراف بخطاياها تنسى أنها تكشف نفسها وتتعري أمام إنسان .. كأي إنسان . وأذكر أن صديقا كاثوليكيا قال لي : عندنا نكتة تقول إن شاباً ذهب يعترف للقسيس . فجلس أمامه . ولم ينطق حزينا سادرا . فسأله القسيس :

ماذا بك ؟ .. فأجاب الشاب : لا شيء . قال القسيس : إذن لماذا جئت .. هل أنت على صلة بمدام جورج ؟ قال الشاب :

— لا

— هل أنت على صلة ببنت روفائيل ؟

— لا

— هل تعرفت بأرملة شارل ؟

— لا

— إذن أنت على صلة بجورجيت بنت صمويل ؟

— لا

— إذن لماذا جئت إلى هنا ؟ قل لي لماذا ؟

فقال الشاب : أبدا .. فقط لكي أحصل على هذه العناوين !

وفي مصر القديمة يوجد في مكان واحد ٢٩ مسجدا و ٢٠ كنيسة ومعبد واحد يهودي اسمه « معبد ابن عزرا » ومن أهم كنائس مصر كنيسة أبي سيرجه .. أو كنيسة القديس سرجيوس . وأهم ما في هذه الكنيسة « المغارة » التي اختفى فيها السيد المسيح مع أمه ويوسف النجار وبقي في هذه المغارة ومعهم « حمارة » . وهذه المغارة كانت رومانية .

والعجيب أن الأسرة المقدسة عندما هربت من الرومان الذين هددوا بقتل كل طفل ذكر قد هربت إلى مغارة رومانية — وهو شيء بعيد الاحتمال . فلا أحد يتصور أن الهاربين من الرومان سيختفون في مغارة رومانية . وإن كان اليهود

يفسرون ذلك بأن الأسرة المقدسة وهى يهودية قد جاءت تختفى فى منطقة مصر القديمة التى بها عدد كبير من العائلات اليهودية . والمغارة تحت الكنيسة وهى آيلة للسقوط مع الأسف - الكنيسة والمغارة . وكانت مياه الفيضان تغطيها . وكان الأصدقاء من الأجانب عندما يرون المغارة يصرخون : كيف تفعلون ذلك بأقدس أقداس المسيحية .

بل إن واحدا منهم قال لى : لماذا لم يهرب المسيح إلى أسبانيا أو إيطاليا .. لو فعل لرأيت كيف يحتفل العالم كله بهذه المغارة !

وأذكر عندما سافرنا إلى أمريكا، ذهبنا إلى أحد مطاعم لوس أنجيلوس. وعرفنا أن تحت المطعم يوجد نموذج لهذه المغارة ، ونزلنا وقابلنا عدد من الرهبان والراهبات يرتدون ملابس اليهود فى أيام المسيح .. وكانت المغارة مكيفة الهواء والضوء . وينبعث من كل جوانبها صوت رائع يردد الموعظة الأخيرة للمسيح . ولما عرفوا أننا من مصر ، اقترب منى واحد وبكل لطفه سألنى : هل هذه المغارة تشبه المغارة الموجودة فى القاهرة ؟

ولم أقل : بل هنا أروع وأجمل . وإنما قلت : تماما وبمئتهى الدقة . ولم أقل : ولا ينقصها إلا شئ من ماء الفيضان ليجعلها نسخة واحدة من المغارة التى تركناها فى القاهرة .

وكانوا سعداء جدا بما قلت . وراحوا يهتفون أنفسهم على هذا التوفيق . وبين لحظة وأخرى يؤكدون لى : أن هذه شهادة يعتزون بها . ثم طلبوا منى أن أكتب فى دفتر هذا الرأى . وكتبت والله يعلم أننى كاذب !

وما أزال أطفو على وجه هذه المقدسات أسبح فيها ولا أبتل . كأننى غطيت جسمى بطبقة من الزيت حتى لا يلمس الماء جلدى . لماذا ؟ لا أعرف . ولكنى لم أتوقف عن التنقل من قداسة إلى قداسة .

وترددت كثيرا بعد ذلك على المعبد اليهودى لبن عزرا . وهو أيضا فى مصر القديمة وعلى مسافة قريبة من كنيسة أبى سرجة وعلى مسافة مئات الأمتار من مسجد عمرو بن العاص الذى غطته الأتربة والحجارة من الداخل ومن الخارج والطريق إليه محفوف يمينا بالبلايص والقلل وشمالا بأكوام الزباله .

ومعبد بن عزرا فيه تحف لا نظير لها فى العالم . ففيه التوراة القديمة .. وفيه التلمود .. وفيه « المنورة » ذات الشموع وفيه العبارات المأخوذة من التلمود والتي تقول : « حتى لو كانت أبواب السماء مغلقة فى وجه الصلوات ، فإن الدموع تفتح كل الأبواب » .

وكان اليهود يعيشون فى الجزيرة أيام النبي موسى ويسموننا أرض جوشن .. وكانوا ينقلون إلى مصر القديمة .. وفى كنيسة بن عزرا تجد تحفا أثرية تقدر بملايين الجنيهات . ففيها تحف فضية ، وفيها مخطوطات نادرة .

و درست التوراة والتلمود — بعض مئات الصفحات من التلمود .. وأعجبنى من التوراة عدد من الأسفار مثل : المزامير ونشيد الإنشاد وأرميا وأشعيا .

وظل عدد المترددين على هذا المعبد يخلطون بين اسمى واسم رجل آخر له نفس الاسم وهو يهودى . وكانت زوجته اسمها جويس منصور . صاحبة ديوان « صرخات » وكانت ابنة داود علس وعرفوا فيما بعد أننا اثنان نحمل اسما واحدا . وانقطعت عن المتردد

على المعبد .. ولم أعرف فيما بعد أنهم كانوا يعرفون أننا اثنان . ولكن لم يهتم أحد كثيرا بترددى على المعبد أو حرصى على الفهم .. وعدت إلى المعبد بعد ذلك مرات كثيرة مع أساتذة اللغات الشرقية والمستشرقين من أمثال بول كراوس الذى سافر إلى الجامعة العبرية في القدس وعاد معه مخطوطات نادرة وحاول مقابلة د . طه حسين وكان في ذلك الوقت وزيرا للمعارف . وضاق بول كراوس بالمعاملة غير الكريمة وشنق نفسه .

ومعنى الحياء أن أقول إنه استعار كتباً من مكتبة الجامعة باسمى وأنه لم يردها بعد ذلك !

وسافرت أرملته إلى إسرائيل وتزوجت مستشرقاً آخر هو سالومون بينس الذى ألف كتاباً بعنوان « نظرية الجوهر الفرد في الإسلام » وترجمه إلى العربية د . عبد الهادى أبو ريده أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة الكويت .

وفي سنة ١٩٥٥ كنت عضواً ضمن وفد مصر في « مؤتمر الخريجين » الذى انعقد في القدس . وكان يرأس هذا المؤتمر المليونير اللبناني اميل البستاني واستطاع الوفد المصرى أن ينحى إميل البستاني عن الرئاسة وأن ينتخب الجميع د . فؤاد جلال .

وفي يوم الجمعة ذهبنا للصلاة في المسجد الأقصى . وكان الإمام والخطيب هو الشيخ الباقورى . وخرجنا من الصلاة ولم نجد أحديتنا . ضاعت أو ضللنا الطريق إليها . وذهبت حافياً إلى الفندق . ورأينا الصخرة وقبة الصخرة .

وذهبت مع الشيخ الباقورى والدكاترة عزيز صدقى وحسين مؤنس وراشد البراوى ووزير الخارجية المرحوم قدرى طوقان إلى زيارة حائط المبكى .. وهو

الحائط الغربى من معبد سليمان الذى انهدم أكثر من مرة . الحائط ليس عاليا . ولكنه فى حارة ضيقة وقد نبتت عليه الأعشاب .

وبين الأحجار توجد أوراق . سميت ورقة فوجدتها بالعبرية . وعرفت أن اليهود عندما يزورون حائط المبكى يكون ويصرخون ويطلبون من ربهم الخلاص والعودة . وأذكر أننى وضعت فى « حائط المبكى » ورقة أضحكت الأستاذ الباقورى والآخرين .. وكانت هذه الورقة تضم أبياتا للشاعر عبد الحميد الديب والتى يقول فيها :

كأننى حائط كتبوا عليه

إلى آخر الكلمات التى لا يليق ذكرها أو نشرها .

ولم يعجبنى هذا التصرف . فقد وقفت إلى جوار الحائط التى يشتهى ملايين اليهود أن يلمسوه . وعندما استولوا على القدس فى يونيو سنة ١٩٦٧ أسرعت القوات اليهودية إلى تقيل الأحجار والبكاء عندها كما أنهم هدموا كل البيوت القريبة من « حائط المبكى » بما فيها بيوت أسرة ياسر عرفات . وجعلوا أمامها ميدانا فسيحا . وقسموا الحائط إلى ثلاثة أقسام : قسم لصلاة الرجال وقسم لصلاة النساء والقسم الثالث لرجال الدين يقرأون ويتأملون .

وعلى الرغم من أن رئيس إسرائيل زلمان شازار ملحد فى ذلك الوقت ، وموشى ديان ملحد ، فإنهما قبلأ أحجار حائط المبكى !

وفى بيت لحم زرت كنيسة المهد . وقد تقسمت الكنيسة من الداخل إلى قطاعات لكل فئة من فئات المسيحية . وهناك رأيت المزود الذى ولد فيه السيد المسيح .

ورأيت مكان النخلة والتي تحدث عنها القرآن الكريم وهو يتوجه إلى مريم عليها السلام : « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » .

وقبل ذهابي إلى كنيسة القيامة دعاني الصديقان يوسف البندك ومازن البندك إلى الغداء . وصعدت إلى بيتهما . وتغدينا وضحكنا . وقلنا ما يقال وما لا يقال . وبعد ذلك نزلت لأجد أن كنيسة المهد ملحقة بنفس البيت وأنا كنا فوق الكنيسة . وأن أسرة البندك تملك هذه الكنيسة أيضا .. كيف نفعل ما فعلنا فوق هذا الأثر المقدس .. ولكنتي كنت وحدي الذي أصابه الفزع . أما الآخرون فقد اعتادوا على رؤية ما هو مقدس . فجاءت هذه العادة تجرد كل شيء من قداسته . والمثل يقول : يذهب إلى الصلاة متأخرا من يسكن إلى جوار الجامع !

أو لا يذهب لأنه اعتاد على الصلاة والقراءة والأذان .. أوصاق بها جميعا .

ومشيت في طريق الآلام الذي سار فيه السيد المسيح يحمل صليبه والرومان يضربونه واليهود . ورأيت الجثمانية حيث تناول المسيح عشاءه الأخير والذي خانه فيه أحد تلامذته : يهوذا الأخربوطي . وباعه للرومان بقروش قليلة . وقد حاول اليهود بعد ذلك عندما أنتجوا فيلم « بن هور » من تأليف الجنرال اليهودي وليامسون أن يبينوا أن اليهود لم يضربوا المسيح ولكنهم الرومان . فظهر في هذا الفيلم الأمير بن هور وهو حزين على المسيح ويحاول أن يحمل عنه صليبه ولكن الجنود رفضوا - وهذه أكذوبة طبعاً - ومن أجل هذه اللحظة الكاذبة أنفق اليهود ملايين الدولارات !

ووقف أحد القساوسة يقرأ بصوت حزين « الموعظة الأخيرة للمسيح » . إن صوته وعباراته تمزق القلب .. وتذكرني بما فعله أبو بكر عندما سمع الرسول عليه

السلام وهو يتلو الآية التي نزلت عليه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وبكى أبو بكر وعرف أن هذه هي النهاية !

وعندما ذهبت لزيارة الفاتيكان . كان في ذهني أنني أمام تحفة معمارية . ولوحات رائعة على الجدران وأمام أعظم مكتبة في العالم . وأخطر مكتبة سرية أيضاً . وأن الفاتيكان أغنى دولة وأقدم دولة . قد استطاعت أن تقاوم كل الأحداث وتبقى كما هي بلا جيوش ولها أموال في كل بنوك الدنيا . وأن الذين يستثمرون أموالهم هم أصحاب الملايين من اليهود . ودخلت إلى كنيسة القديس بطرس . إنها تحفة فنية . والقديس بطرس هو الذي هرب من روما خوفاً من الاضطهاد . فلقبه المسيح في الطريق . فسأله القديس بطرس باللاتينية : كوفاديس ، دوميني – ومعناها أين تذهب أيها السيد .

فقال له المسيح : جئت لأصلب من جديد !

وأدرك القديس بولس أن المسيح يقول له : « أنه سوف يصلب مرة أخرى في جسم تلميذه بطرس .

وعاد القديس بطرس إلى روما ليكون من الشهداء . فقد صلبه الرومان بعد ذلك بوقت قصير .

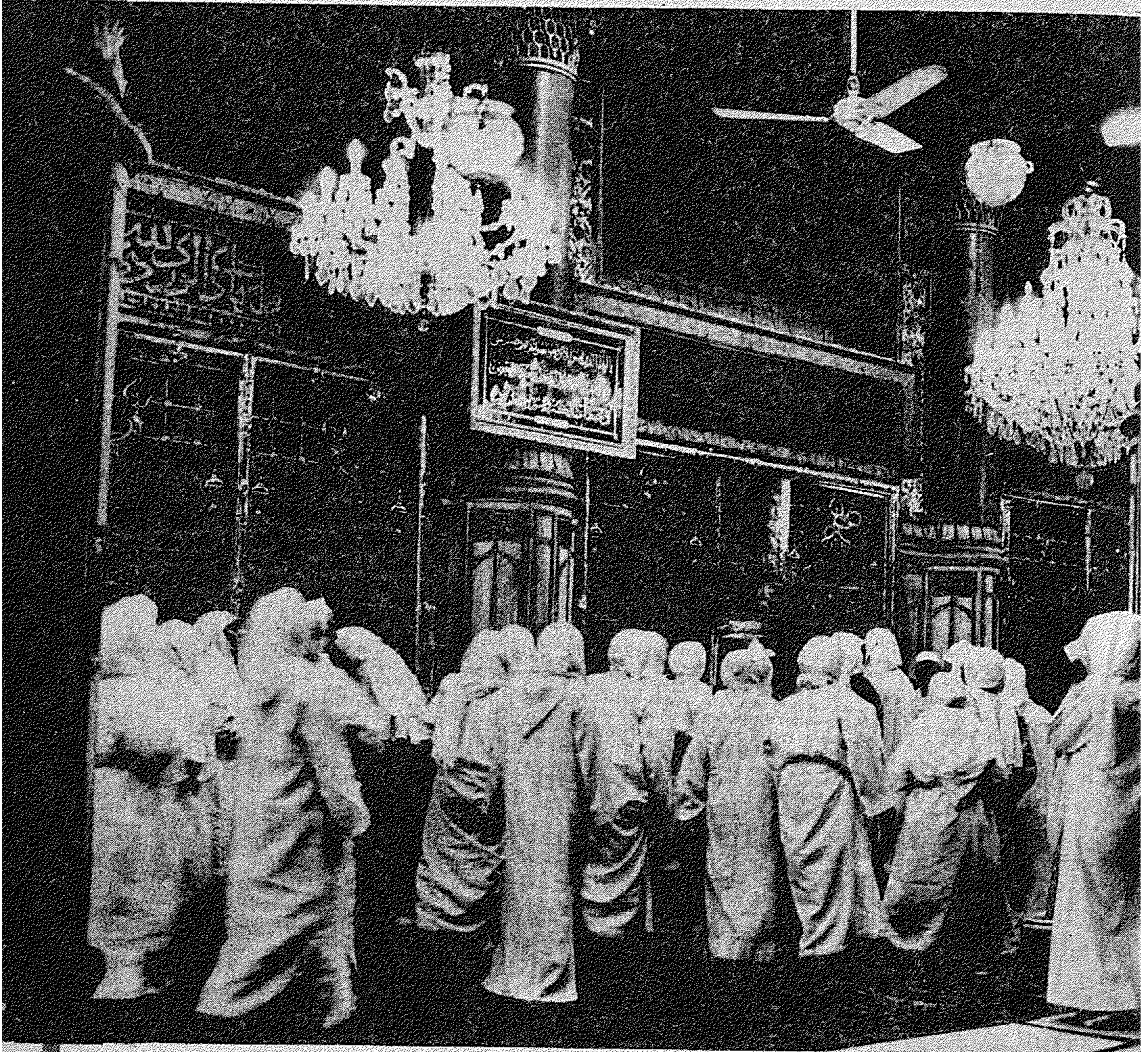
وضمن وفد من القساوسة الصغار دخلت كنيسة القديس بطرس ووضعت طاقيّة على رأسي . وتشاء الصدف أن يمر إلى جوارى البابا يوحنا الثالث والعشرون محمولاً على محفته الذهبية . ويضع يده على رأسي ويمسك الطاقيّة ويمزق جانباً منها ثم يضعها على رأسي بعد ذلك ؟ ولم أفهم . ومن الغريب . أنني لم أسأل أحداً عن معنى ذلك . وعندما خرجت من الكنيسة انهار على رأسي عشرات من الواقفين

خارج الكنيسة . واختفت الطاقة قطعاً صغيرة في أيديهم — على سبيل البركة .
وعندما رويت هذه القصة على ظهر الباخرة أسبيرا عائداً إلى مصر تهجمت على
رأسى عشرات الأمهات يقبلن مكان البركة ! .

وفي الهند رأيت معابد فشنو وشيفا . ورأيت الأبقار المقدسة التي إذا نامت في
الطريق توقف المرور تماماً . والتي إذا دخلت محلاً فإن أحداً لا يقربها أو إذا أراد
أن يخرجها فإنه يصرخ حولها ولا يلمسها . وقد اعتادت هذه البقرة من ألوف
السنين على هذا الاحترام والتقديس .

لذلك فهي آمنة في كل ما تفعله . فهي تعيش وتموت ولا يذبحها أحد . الثيران
فقط هي التي يذبحونها . ورأيت القروء المقدسة والثعابين المقدسة والحشرات
المقدسة ورأيت السلام والأمان في أهل الهند .

وعندما ذهبت لمقابلة الدلاي لاما ، إله التبت . وكان هارباً من بلاده أمام قوات
الصين . وكان في ذلك الوقت يعيش في جبال الهملايا . وفي الطريق إليه مررت
على حديقة اسمها الحديقة المقدسة . كل أشجارها مقدسة . وممنوع الاقتراب منها .
وحملوني على محفة إلى قداسة الدلاي لاما . وكان يتولى الترجمة رئيس وزراء
الدلاي لاما . وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة . وأكرمني الدلاي لاما وأجلسني إلى
جواره على مدى شبر من أنفه الذي يخروى ويشر ، وطبعي أن يصيبنى الزكام المقدس .
وأن ألعن أجداده في سرى . ولكن إحساسى بأننى الوحيد الذى قابله وصوره
هو وأمه ووزرائه ، خفف عني ويلات الرشح والسعال . بل إن بعض الوزراء
حسدنى على ما أصابنى . وقال لى : يا بختك .. إننا نعيش معه عشرات السنين
ولم ينلنا هذا الزكام العظيم والسعال المقدس والرشح الأبدى !



ولا تكتمل بهجة الحجاج إلا بزيارة قبر
الرسول عليه السلام . في المدينة المنورة . .

إنه إله للتبت يختارونه بالصدقة ويجعلونه مقدسا وعندما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره يخفونه أو يقتلونه . فهو الوحيد في العالم الذي يعرف متى سيموت . ولذلك فحياته تعيسة . وسألني رجاله : إن كنت قد أحسست بشئ من البركة . فقلت : طبعاً .

ويعلم الله أنني كاذب .

واستوضحوني أكثر فقلت : « إن الدم يغلي في عروقي .. وإن القوى الشيطانية تخرج أظافرهما من كل مكان في جسمي .. وإن وزني سوف ينقص حالا لأن الماء ينزل من أنني باستمرار .

ولم أكن كاذبا فقد انتقلت إلى كل أعراض الأنفلونزا الإلهية بسرعة أعرفها ، وأعاني منها ، ولا أزال ، وسوف أظل مدى الحياة !

وأحسست أن الشمع قد سد أذني تماما وأنه بدأ ينتقل إلى عيني أيضا : ياه .. واحد عيان وإله في نفس الوقت !

وفي جزيرة بالي بأندونيسيا قدمت نفسي على أنني من رجال الأزهر الشريف ولم أدرك خطورة هذه الكلمات . فقد نصحوني بألا أقول إنني صحفي . فهذه مهنة لا قيمة لها . ولا تعني شيئا بالنسبة للناس هناك .

ولكن إذا أردت أن أكون محترما فلا بد أن أكون من رجال الدين . وقلتها . وفي الليل جاءني عدد من الحضارمة . وهم أبرع تجار آسيا وهم الذين نقلوا الاسلام إلى ١٢٠ مليوناً في أندونيسيا ، ومائة مليون في الصين ومائة مليون في الهند و ١٢٠ مليوناً في باكستان .

وتقدم واحد منهم ليقول : يا شيخ

فقلت : نعم ..

— لماذا لا تصلى معنا التراويح ؟

— طبعا إن شاء الله ..

وكان ذلك في رمضان . ولم يخطر على بالي أن أوثم كل هؤلاء المؤمنين . مقلب .
وفضيحة لى . لا شك .

ولكن لم أعرف لماذا اكتفوا بأن أوثمهم في صلاة العشاء . الله أعلم . ولكن
بعد ساعة جلسنا معا ، على أرض المسجد وسألوني عن المشير عبد الحكيم عامر ..
وسألوني عن جمال سالم الذى ذهب إلى الصين .. وأخطر من ذلك سألوني عن معنى
قوله تعالى : النجم الثاقب ..

وقالوا إنهم أرسلوا إلى أحد العلماء في سنغافورة . وقد أرسل لهم الشرح وقرأوه .
ووجدت الشرح معقولا . وسألوني ما علاقة هذه الآية بأول رائد للفضاء أطلقه
الروس ؟

ولا أذكر الآن ماذا قلته إطلاقا . فلا أنا من رجال الدين ولا أنا من المتفقيين
في الدين ولست مؤهلا لأن أكون إماما وشارحا — فليسأخنى الله ؟

وعندما عدت إلى جاكرتا طلب منى د. محمد محمود رضوان ، مستشارنا
الثقافى في ذلك الوقت أن أحضر امتحان الطلبة المسافرين إلى مصر ليلحقوا بالأزهر .
وجلست وسأل الدكتور رضوان أحدهم : هل تحفظ القرآن الكريم . قيل له : نعم .

— اقرأ سورة النحل .

فقرأ الطالب ..

وسأله : هل تحفظ الأحاديث النبوية ؟

— بعضها .

— قل لى بعضها .

وروى الطالب بعض الأحاديث .

ثم سأله : هل تحفظ شيئا من التواشيح الدينية ؟

— نعم .

اسمعى .

— حاضر ٦X٥ بتلاتين يوم .. ألو ألو إحنا هنا . ونجحنا أهه فى المدرسة ..

ولم يعرف الطالب أنه يردد بعض أغنيات شادية . ولكنهم يعتقدون أن كل ما تذيعه مصر التى بها الأزهر الشريف ، هو تواشيح وأغان مقدسة . ولذلك فالرقابة تحذف الرقص من الأفلام المصرية .

بل إن فيلم خالد بن الوليد عندما عرض هناك كانوا يدخلون السينما بعد أن يخلعوا

الحذاء !

ولما ذهب شيخ الأزهر الأستاذ تاج ، كانوا يقبلون السيارة التى يركبها . واندعشوا وما زالوا مندهشين ، عندما وجدوا بعض رجال الدين المصريين قد ناموا أثناء جلوسهم معهم . وأن نومهم كان مسموعا صارخا . لأن هذا يخالف الآية الكريمة التى تقول : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » .

وفى باريس دعانى إمام المسجد سى قدور بن غريبط إلى صلاة العيد . ودخلت

واكتشفت أن بعض السياح الإمبريكان والإيطاليين وبعض الفرنسيين قد تسللوا
يتفرجون على أناس ير كعون ويسجدون ويكبرون . ولا يفهمون شيئا .

بل إن واحدا منهم قد وضع يديه في جيوبه وسيجارته في فمه . نهض أحدنا ونهيه
إلى ذلك . فأطفأ السيجارة وأخرج يديه وجلس على الأرض . وراح يقلب في
إحدى المجلات . إنه هو أيضا ملاً أذنيه بالشمع . فلا شيء يسمعه ، والذي يسمعه
لا يهزه ، فهو لا يعرف من أمر هؤلاء المسلمين شيئا ، ولا يهمه أن يعرف . وإذا
أراد فلا وقت ، وإذا كان وقت فلا فائدة .. فهو مسيحي والسلام !

وفي العراق زرت النجف وكربلاء .. وهنا أقدم قداسات الشيعة . فعلى ابن أبي
طالب عليه السلام قتل وأولاده من بعده . وارتدى الناس السواد حدادا على ذلك .
وارتدى رجال الدين السواد أيضا . والمساجد في غاية الروعة . وتحت قبابها
أكوام من الأحجار الكريمة جاءت من كل مكان .. وروائح البخور والعطور
تبعث من أرض المساجد ..

وأرض النجف والكربلاء ظهور . ويصنعون منها المسابح . ويجيء الشيعة من
إيران حفاة وعراة . ويحيثون بالسجاجيد الفاخرة يبيعونها ليعيشوا من ثمنها .
ورغم الخلافات الحادة بين إيران والعراق . ولكن لا حياة روحية للشيعة بغير
زيارة الأراضي المقدسة في النجف وكربلاء . وقد حذروني إذا دخلت المسجد
وصليت ألا أضع يدي مضمومتين على صدرى . فإن أهل السنة هم الذين يفعلون
ذلك . وبالفعل امتدت يد من جوارى تفك يدي . . فقد نسيت . وقيل
لأننى لو فعلت ذلك في مسجد آخر لطرّدوني من المسجد . وأعتقد أن هذه مبالغات
وتشويه لعادات وتقاليد الشيعة !

ونحن في مصر لا نعرف هذه الفوارق المذهبية بين الشيعة والسنة .. فالمصريون المسلمون من أهل السنة ومع ذلك يقيمون صلوات الأعياد ومولد النبي ورمضان كله في مسجد الحسين .. ويترددون على مسجد السيدة زينب والسيدة فاطمة والسيدة نفيسة ، ولا يخطر على بال أحد ما علاقة كل هؤلاء الأولياء بعلى والشيعة ؟

وفي طهران ذهبت أتفرج على معبد النار أو النور .. المعبد غرفة واحدة . وفي منتصف الغرفة غرفة زجاجية في داخلها قنديل مشتعل . والقنديل يستمد طاقته من الزيت . ومفروض أن هذا القنديل لا ينطفئ أبدا ، مثل شعلة الجندی المجهول .

وعلى المؤمن أن يجلس على مقعد وأن يظل ينظر إلى هذا القنديل ويتفكر في الكون . فكل شيء فيه نور ونار والله هو هذا النور وهذه النار . وليس القنديل إلا رمزا لذلك . ومادام الإنسان غير قادر على أن يرى الله مباشرة ، فليُنظر إلى ما يرمز له .

والقنديل صنعه إنسان وقدم له الزيت إنسان ، ويجلس أمامه إنسان في حالة ذهول .. ففي هذا القنديل تتجلى قدرة الله .

وجاءني رجل الدين وقد نزل من سيارة فخمة . وقد ارتدى البيجاما والشبشب . وفي مكان مجاور توجد إدارة المعبد . ومنها تتعالى ضحكات ناعمة . واقتربت لأرى أربع فتيات جميلات جدا يلعبن الورق !

وبالقرب من هذا المعبد محلات بيع صور للنبي عليه السلام ولعلي بن أبي طالب . والصورة مصنوعة في اليابان . إذا أملت إلى اليسار رأيت وجه الرسول ، وإذا

أملتأ إلى اليمين رأيت وجه على .. ولوحات كبيرة حائطية لصورة الرسول والإمام على - كيف ؟ هنا ممكن !

وفى طوكيو رأيت المعابد الكبرى هناك .. وفيها نيران مشتعلة ليلا ونهارا . ورأيت عددا من المعابد البسيطة التى تتعلق فى مداخلها مقشاة . ومفروض أن يهر الإنسان هذه المقشة . فتكنس خطاياہ . واليابانيون يفعلون ذلك فى الذهاب والإياب ..

والرجل اليابانى من الممكن أن يعتنق دينين وثلاثة أديان فى وقت واحد . فيكون بوذيا وشتويا أو كنفوشيا وشتويا ومسيحيا . وليس ذلك غريبا . ولكنه طبيعى جدا فى اليابان .

واليابانيون عمليون جدا . وعندهم هذه العبقرية على توطين كل شئ . وإعطائه الذوق اليابانى . فبدلا من أن يذهب كل اليابانيين إلى المعابد . فإنهم يقيمون لأنفسهم معابد فى البيت .. نماذج صغيرة لهذه المعابد - معابد ترائستور . ويصلون أمام هذه المعابد ويخرجون وقد أدوا ما وجب عليهم نحو ربهم !

ولو سقط هذا المعبد الصغير لأى سبب ، فإن الرجل اليابانى يشتري معبدا آخر ويضعه فى نفس المكان : تماما كما يضع مسمارا فى حائط .. أو يضع لوحة بدلا من لوحة . فهو يعلم أن كل هذه رموز . فهو لا يصلى للمعبد . ولكن يبتهل أمامه هو وأهل بيته . فالمعبد الصغير يوحد بين أفراد الأسرة : يوحد اتجاههم وصلاتهم !

وأجمل ما قرأت فى كتاب « الفيدا » دعامة الديانة الهندوكية هذه العبارة :

أيا كانت وجهتك ، أيا كانت قبلك ، أيا كان وثنك ومعبودك فأنا الذى أستجيب
لدعائك . . إننى وراء كل شئ ، ووراء كل رمز ! » .

* * *

وفى مدينة هوليوود كنت على موعد مع الملكة نازلى . فقد تلقيت برقية من
« أخبار اليوم » تطلب منى أن التقي بالملكة نازلى وأجرى معها حديثا . وقابلت
رياض غالى زوج الأميرة فتحية . . ووجدت رياض غالى ممزق الملابس حزينا .
ولم يفهم لماذا هو خارج مصر مع أنه لم يفعل أكثر من تمردده على الملك فاروق
وهز أركان الأسرة الملكية وحطم قلب الملك فاروق .

وهو لذلك لا يستحق الطرد من مصر . وطلب منى أن أعده بشرفى ألا أكتب
حرفا واحدا عنه أو عن الملكة نازلى . ووعدته . وقال إنه ليس فى حالة تسمح
له بالدفاع عن نفسه إذا قلت عنه أى شئ . ومعه حق . ولم أكتب حرفا .

وسألنى : هل تحب أن ترى شيئا هنا .

قلت : أريد أن أرى سينما المصرى .

وسألته : ومن هو المصرى .

ولم يعرف رياض غالى . وأنه لم يفكر فى ذلك .

واسم « المصرى » هذا ليس مقصودا به مواطنا مصريا . وإنما المقصود هو
موسى عليه السلام لأنه مصرى : وصاحب السينما يهودى . وفى هوليوود كل
الشركات السينمائية يهودية . فالشركة مترو - جولدين - ماير - هؤلاء الثلاثة
يهود . واخوان وارنر - ثلاثتهم يهود أيضا .

وكان من الضروري أن أتفرج على أحد المعابد اليهودية . ووجدت واحدا . وعرفت أن في هوليود معابد كثيرة وفي أمريكا كلها مئات . ولم أجد شجاعتى عندما قررت أن أدخل أحد المعابد . ففى أمريكا يشعر الإنسان بأنه صغير . فهو قليل فى دولة كبيرة ومواطنوها أكثر من ٢٥٠ مليوناً . والناس يمشون بسرعة . ولا يشعرون بك . ولا يعرفون من أى البلاد أنت . وهم ينظرون إلى بلادك على الخريطة فيجدونها مساحة صغيرة . . . ثم يجدونك أنت من الفقراء . تمشى على رجلبك ولا عندك سيارة ولا طائرة ولا مزرعة ولا أنت ابن عمدة أو محافظ أو عضو فى مجلس الشيوخ . . ثم إنك لست من شيوخ الكويت أو أمراء السعودية . يعنى أنت ولا حاجة !

وبهذا الشعور بالهوان الذى لا مبرر له ، انتزعت كبريائى وشجاعتى . ودخلت المعبد . ووجدت عند « قدس الأقداس » مجموعة من الطواقى . فوضعت واحدة على رأسى وقابلنى الخانجام وسألنى : من مصر ؟!

وأدهشنى ذلك . ثم راح يكلمنى باللغة العربية . فهو لم ينتظر أن أجيب بأننى من مصر أو من أى بلد آخر كأن أقول : إيطاليا . . أسبانيا من مراکش . وسألنى : هل قابلت أحدا من اليهود هنا ! . .

قلت : لا . لماذا ؟

— لأنك لست فى حاجة إلى البحث عنهم . إنهم هنا فى كل مكان . أين تسكن ؟

— فى فندق روزفلت .

— أصحابه من اليهود .

- وأين تتناول عشاءك .
- فى شارع غروب الشمس (صنست بوليفار) .
- كله من اليهود .
- وهذا الدواء ضد الزكام من أين !
- من أجزاخانة فيتامين للجميع .
- إنها ملك أخى !
- كم تبقى هنا .
- .. أياماً
- وتسافر إلى نيويورك على أية طائرة .
- على طائرة يهودية طبعاً .
- بالضبط .
- كنت أريد أن أتفرج على هذا المعبد .
- إنه متواضع جداً . عندكم فى مصر القديمة معبد ابن عزرا — تحفة حاولنا شراء ما فيه . ولكن لم نستطع .
- لماذا ؟
- هل تغضب لو قلت لك الحقيقة ؟
- الحقيقة لا تغضب احداً .
- لا أوافقك على ذلك . . ولكن سوف أقول لك . . إننا فكرنا كثيراً .

وأخيرا استقر رأينا على أنه لا داعى لنقلها من مصر مادما سنعود إليها .
وتضايقت جدا وقلت له : نحن على استعداد لأن ننقل إليكم هذه التحف حتى
لا نراكم بعد ذلك .

— وبعد ذلك تريد أن تتفرج على المعبد .

— رغم ذلك أريد أن أعرف .

— أنت من طراز نادر . تستطيع أن تدوس على نفسك من أجل أن تعرف .

— أحاول أن أفعل ذلك الآن . .

ولا أظن أننى رأيت بوضوح أو فهمت ما قاله الخاخام بعد ذلك . ولكن
حاولت أن أثبت له أن الذى قاله لا قيمة له . وأنه حاول إغضابى لعلى لا أكمل
الحديث معه ، أو لعلى أخرج دون أن أرى أو أعرف . .

وعندما ودعنى عند باب المعبد قال : لم تضع وقتك . وإن كنت قد غضبت
من هذه الصراحة .

— وقاحة لا صراحة !

وسألنى رياض غالى : إن كنت قد استمتعت بما رأيت . فقلت : بما رأيت
نعم . ولكن بما سمعت لا !

ويبدو أنه كان يتوقع شيئا من ذلك . ولم يشأ أن يصدنى عن مزيد من المعرفة !

* * *

ولم أزر مسجد السيدة زينب ومسجد الحسين إلا منذ عامين فقط . فقد كانت
أُمى مريضة . وتصورت أن هذه الزيارة ستخفف عنها ويلاتها .

وذهبت ودعوت ونذرت . وجاء أمر الله واستراحت أُمى من حياتها . وكرمها
الله وشرفها . وأعانها على مرضها بالدواء والعلاج . . وكان الأغماء الطويل
مقدمة للراحة الكبرى فانت وهي لا تعرف إلا أنها نائمة !

وفي امبابة مسجد أمام نادى بنك مصر . اسمه مسجد الشيخ أبو طرطور .
وكثير من الناس يتبرك بهذا الرجل المجهول . وترددت عليه كثيرا . . ووقفت
إلى جواره وقرأت ودعوت . واستجاب الله لكثير مما طلبت - والله أعلم كيف !
وسبقنى الأصدقاء إلى كنيسة القديسة تريزا بشبرا . وألوف المسيحيين والمسلمين
يتبركون بها . وينذرون لها . ويستجيب الله لدعواتهم . ولا أعرف كيف ؟
وذهبت إلى كنيسة القديسة تريزا وتفرجت على الناس . واستحضرت روحها
الصفية وعذابها وهوانها على الناس .. وإيمانها العميق . ورأيت نذورا بأسماء عدد
كبير من المسلمين . وهذا طبعى . فصاحب الحاجة أو المشكلة يريد أن يجد
لها حلا عند أى إنسان أو فى أى مكان . . والله فى كل مكان ، والله يودع سره
وقدرته فى قلوب كثير من المؤمنين ..

وفى سنغافورة دخلت أحد المعابد الصينية . لا أعرف الفرق الواضح بين
المعبد الكونفوشى والمعبد البوذى . فهناك نقوش وتماثيل وبخور وعطور
وأضواء . وسألنى أحد رجال الدين : هل لك شكوى ؟

لم أفهم . وسألته : ما الذى يقصده ؟

فقال : هل لك شكوى من ألم فى جسمك .

قلت : أخاف من البرد . فإذا أصابني أقام في جسمي طويلا .

قال : إذن أمش ورائي .

ومشيت ورائه . وكلما اقترب من نهاية المعبد وأمام تمثال كبير لبوذا لمس
كتفي . ثم عاد فلمس ركبتي . ثم عاد فمسح على رأسي .

وسألني : هل ضاع منك شيء ؟ !

فأدهشني السؤال . فقلت : فعلا ضاع مني أكثر من ٣٠٠ جنيه .

سألني : كيف ؟

قلت : لقد ألغى الرئيس سوكارنو العملات من فئة المائة روبية . وكانت
كل فلوسى من هذه الفئة . ففى لحظة واحدة لم أعد أملك إلا القليل جدا .
فقال : لن أرد إليك كل هذه الأموال وإنما بعضها فقط . . . مائة جنيه فقط .

— كيف ؟

هذا شأنى . فإذا عادت إليك أرجو أن تمر على المعبد مرة لتخبرنى بذلك .
وتضع جزءا منها فى صندوق التبرعات :

وخرجت شاكرا ولا أصدق شيئا مما يقول .

ولكن العجب حقا . اننى لم أعد أشكو من أوجاع البرد إطلاقاً . وليس هذا
وهما . ولكنها الحقيقة . . . ثم إننى وجدت فى حافظة نقودى ما يعادل مائة جنيه .
لا أعرف من أين جاءت . وذهبت إليه أشكره . فأخى رأسه كأنه يعرف .
ثم أشار إلى صندوق التبرعات . وأعجب ما حدث هو أننى اكتشفت بعد أن

خرجت من المعبد أننى — دون وعى — قد أودعت كل الفلوس التى عثرت عليها
فى حافظة نقودى !
ولم أذهب للرجل بعد ذلك !

* * *

ورأيت عددا كبيرا من بيوت ومقابر العظماء الذين أحترمهم . فقد قرأت
لهم وأحنيت رأسى لهم . .
رأيت قبر نابليون فى باريس . . القبر تحت والناس ينظرون إليه من فوق .
والحكمة فى ذلك : أن يحنى الناس رؤوسهم إذا نظروا إلى قبر عبقرى الحروب
والسياسة والغرام والقانون .

ورأيت قبر الشاعر داتى فى مدينة فلورنسا وقبره عبارة عن غرفة خائقة .
ولكثرة الزحام عليها أصبحت روائحها كريهة . لعل الذى صمم هذا القبر أراد
أن يذكرنا بالجحيم الذى كتبه داتى .

وكان يرافقتى د . حسن عثمان الذى ترجم الكوميديا المقدسة لداتى بأقسامها
الثلاثة : الجحيم والمطهر والفردوس . وطلبت إليه أن يشرح لى شيئا . أن يحدثنى
عن الشاعر وتعبت فى الرجاء ، فجاء رفضه جزءا آخر من الجحيم !

ورأيت بيت الشاعر الألمانى جيته فى مدينة فرانكفورت على نهر المين . ورأيت
أين يكتب . . أو على الأصح أين يقف ليكتب . فلم يكن يكتب إلا واقفا .
وأين يأكل وأين ينام . وكان يرافقتى د . مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية والذى
يتكلم عشرين لغة ، من بينها الأرامية والأكادية والعبرية والحبشية والحيشية والقبطية الخ .

ولم يكن د . مراد كامل متحمسا لهذا الاحترام الهائل الذى أكنه لأمير شعراء ألمانيا . وكان العقاد يقول إن الشاعر جيتة ليس إنسانيا . فعندما كان وزيرا للمعارف فى إمارة فيمار فصل الفيلسوف فخته من عمله ، لأنه خالفه فى رأى . ولكنى كنت مبهورا بما أراه وما أسمع من شاعر عظيم أحببت فيه . ولم أحب أخلاقياته . وقرأت أجمل ما قيل عنه فى كتاب « مجاورات أكرمان » التى سجلها سكرتيره أكرمان . فأجاب جيتة عن ألوف القضايا فى غاية الوضوح والفخامة والعمق . وفى مدينة تينجين زرت البيت الذى عاش ومات فيه الشاعر الألماني هيلدرلن . عاش ثمانين عاما ، نصفها فى مستشفى الأمراض العقلية .

وكان يرافقتى د . عبد العزيز حجازى . وعندما وقفنا عند باب البيت خرجت سيدة وفى يدها سلة للغسيل . ولم أصدق أن هذا بيت الشاعر العظيم الذى يعتبر من أروع شعراء ألمانيا ، والذى ألف ملحمة هيريون ، تحفة الأدب الألماني فى كل العصور .

ويبدو أننا وصلنا متأخرين بعض الوقت . ولكن السيدة أشارت بيدها إلى غرفة على اليسار . وقالت : هنا كان سريرى . ونافذته التى تطل على نهر السالزاخ . . . وهناك على الضفة الأخرى « حديقة التأوهات » . .

وذهبنا إلى البيت الذى كان يسكنه الفيلسوف هيجل أبو المثالية الألمانية . والذى تمرد عليه كارل ماركس فاستفاد من فلسفته كلها ، واستخدم مصطلحاته وفلسفته التاريخية . ولكن كارل ماركس يقول : إن هيجل جعل الفلسفة كلها تمشى على رأسها فأما أنا فقد أوقفها على رجلها !

وجاء الفيلسوف الدنمركى الوجودى سيرن كركجور وثار على الفيلسوف

هيجل واستخدم مصطلحاته كلها وجعلها سهاما مسمومة استقرت في قلب
الفلسفة المثالية . .

وأعترف بأن رأسي اهتز كثيرا ، وأن أكثر الشمع قد ذاب في أذني فسد هما
تماما . . ثم بدأ يذوب خارجاً من أذني . . فأنا أشعر بأن هؤلاء العظماء بشر .
لهم وجود ولهم كتب ولهم نظرات وآلام . وأنهم فكروا وتعذبوا وأتوا بشئ جديد ..
أعرفه جيدا . ولذلك أقدرهم تقديرا عاليا ..

* * *

وفي مدينة نابلي ذهبت إلى اللواء حسنى نجيب لزيارة بيت الفيلسوف الإيطالى
بندتو كروتشة . الرجل الذى عرض عليه أن يكون أول رئيس لجمهورية إيطاليا
بعد سقوط الملكية فرفض .

كما رفض العالم الرياضى اينشتين أن يكون رئيسا لإسرائيل . . وكما رفض
لطفى السيد أن يكون أول رئيس لجمهورية مصر . . وكان كروتشة قد مات .
وأردت أن أرى بيته ومكتبته وابنتيه . ورأيت المكتبة ورأيت ابنتيه وقلت لهما
إن بعض مؤلفات الفيلسوف العظيم قد ترجمت في مصر . إن واحدا من كتبه
واسمه « الخلاصة الجمالية » قد ترجمه اثنان من الأصدقاء هما : د . سامى الدروبي
و د . بديع الكسم .

وقلت : إننى أيضا ترجمت فصولا من كتابه « التاريخ قصة الحرية » وأهدتني
إحدى بناته كتابه عن « علم الجمال » وكانت عندي نسخة من هذا الكتاب . ولكن
أحسست أننى أخذت الدنيا كلها . وظل هذا الكتاب لا أفتحه ولا أقلب فيه . .
احتراما له وإعجابا بصاحبه !

وفي سالزبورج بالنمسا زرت البيت الذي ولد فيه الموسيقار المعجزة موتسارت .
وصعدت الدرج . ورأيت الغرف الصغيرة وأواني الطبخ النحاسية . . والبيانو
الصغير . وخصلة من شعره . .

ولما ذهبت إلى فيينا ورأيت مقبرته . . أو يقال إنها مقبرته . . وعرفت أن زوجته
لم تسر في جنازته . وقيل في ذلك الوقت إنها مريضة . وقيل إنها كانت تخونه . .
وصدر حديثا جداً كتاب يرى هذه الزوجة . فقد اكتشف أحد علماء الأرصاد
أن الجو يوم وفاة موتسارت كان عاصفا رعديا وكانت الأمطار غزيرة حتى ان
أحدا لم يستطع أن يمشى في جنازته . ثلاثة فقط . ولم يكن في الإمكان أن يذهب
وراءه أحد . .

وبكيت على عبقرى الموسيقى . .

وفي مدينة بون بألمانيا رأيت البيت الذي عاش فيه الموسيقار العظيم بيتهوفن .
هنا كان يؤلف . وهنا كان يجلس . ثم هذه سماعات صغيرة وكبيرة وكبيرة جدا
كان يضعها في أذنيه عندما أصيب بالصمم في آخر أيامه . . ثم بالجنون . فقد كانت
الفرقة الموسيقية تعزف أحد روائعه . عندما رأى الناس يهللون فظن أنهم يسخرون
منه ، فكاد أن يفقد عقله .

وقد فكر في الزواج مرة بعد مرة ولكن الفتيات كن يهربن منه . لأنه عنيف
وحاد المزاج وعصبي . ولا يغتسل كثيرا . ولا يريد أحدا أو شيئا يشغله عن فنه . .
مسكين عاش غداً ساحراً لآذان الناس ، ليفقد أذنيه بعد ذلك !
وهزنتني قصته وحياته ومأساته .

* * *

وفى هافانا بكوبا رأيت البيت الذى عاش فيه الأديب الأمريكى همنجواى
حديقة واسعة ما تزال فيها الغزلان . البيت من دور واحد . تحفة . وفى إحدى
الغرف عشرات من الأحذية تجاورت وتكدست - كما كان يفعل العقاد .

وكان يشرب كثيرا حتى لا يفيق . ولكنه عندما يكتب كان يصعد إلى أحد
الأبراج . وكان يكتب بعشرات من أقلام الرصاص . وأطلق على نفسه النار
ومات . تعب من الحياة لم يفهم كل ما يريد أن يعرفه . بائس من الإنسان . حزين
على أن عمره قصير . والذى يريد أن يقوله كثير .

والحكمة اللاتينية تقول : العمر قصير والعلم طويل !

وأنه لا أمل فى نجاة الإنسان من الإنسان . ولا أحد يستطيع شيئا لأحد .
والدنيا لا يصلحها كاتب ، ولا ألف كاتب . وإنما يصلحها نبي أو من هو فى
مقام الأنبياء !

* * *

وفى مدينة ريالو على شاطئ الريفيرا الإيطالى أقام الشاعر الإنجليزى بيرون.
وجاء الشاعر الإنجليزى شيللى وغرق فى المياه التى تطل عليها المدن الجميلة :
بورتو فينو ورابالو وفوريتوزه وسانت مرجريتا . وأروتا . . وفى أحد البيوت
قيل لنا : هنا أقام .. وهنا نام . . وهنا أحب ... وهنا كتب . وهنا نقلوا جثمانه ..
وكان شابا عظيما . وكانت له مأساة . فن الذى لا يحزن على شبابه وعبقريته ؟

* * *

وفى لنتجراد زرت بيت الشاعر العظيم بوشكن . هنا مكتبه . وهنا سريره
الصغير . بل هذا هو سريره فقد كان ضئيل الحجم . وهو من أصل أفريقى مثل

الروائي الكسندر ديماس ومثل الفيلسوف ألبير كامى . وقد دخل الشاعر بوشكين فى صراع وفى نزال . وكان نصيبه الموت .

وفى موسكو قبر لينين . أهم معالم موسكو . وأهم ما يفعله الزائر إلى الاتحاد السوفيتى هو أن يقف فى الطابور الطويل الذى لا ينتهى ليدخل قبر لينين . ويلقى نظرة على جسمه الذى تمدد . والذى لا يزال أحمر اللون كأنه مات بالأمس مع أنه مات سنة ١٩٢٤ . ولا يتساءل الناس هل هو لينين أو نموذج من البلاستيك أو أن الروس قد تقدموا فى فن التحنيط ، كما كان الفراعنة من ألوف السنين . لا أحد يسأل . ولا ضرورة . وإنما المهم أن يجد له مكانا فى الطابور ، وأن يدخل لحظات ويدور وينظر ويخرج ويتحدث بعد ذلك !

ولا بد أن لينين كان عبقرية ثورية فذة . فقد استطاع أن يقلب الأوضاع وأن يدير وأن ينفذ وأن يجد إجابات على كل سؤال وأشكال . . وأن يكون بذلك آخر الفلاسفة الشيوعيين ، حتى جاء من بعده ماوتسى تونج وأضاف جديدا إلى التطبيق الشيوعى !

* * *

وفى ميونيخ بألمانيا الغربية تناولت غدائى وعشائى فى حانة البيرة الشهيرة التى كان يعقد فيها هتلر اجتماعاته السياسية . وفى برلين الشرقية رأيت أنقاض قصر المستشارين فى الشارع الذى كان يعرف باسم « أشجار الزيزفون » والذى أصبح بعد ذلك يحمل شارع ستالين . ثم تغير إلى اسم شارع ماركس أو شارع الشعب - لا أذكر بالدقة . وفى قصر المستشارية عقد هتلر زواجه على إيفابراون ، وانتحر هو وهى وانتحر أيضا وزير الدعاية جيلز ، فقد أعطى السم لأطفاله ثم لزوجته ..

ثم أطلق على نفسه الرصاص . ولم أرث لحال هتلر . فقد كان عبقرىا شريرا .
وكان دمويا . أباد عشرة ملايين من جنوده على طمعه وعلى مجده الشخصى ودفاعا
عن نفسه .

ورأيت سجن داخآو بالقرب من مدينة نورنبرج . فى هذا السجن أحرقت هتلر
اليهود وخصومه السياسيين . ولكن استطاع اليهود أن يؤكدوا للعالم كذبا وارهابا
بالسلاح الأمريكى ورءوس الأموال الأمريكية أنه قتل منهم ستة ملايين . .
ومن الغريب أنهم جاءوا يطلبون التعويض من العرب . . كأننا نحن الذين ذبحناهم
وأحرقناهم — مع الأسف لم نستطع ذلك بعد . .

* * *

وكنت الصحفي المصرى الوحيد الذى حضر اجتماعات « المجمع المسكونى » .
وفى بيت سفيرنا لدى الفاتيكان محمد التابعى التقيت بعدد من أمراء الكنيسة الشرقية
فى مصر ولبنان .

وكان المجمع المسكونى يناقش قضيتين : الأولى : هل البابا معصوم من الخطأ؟

والثانية : يناقش الوثيقة التى تقدم بها الكاردينال الألمانى بيا والتى يطالب فيها
بتبرئة اليهود من دم المسيح . مستندا إلى قول المسيح بأنهم لا يعرفون — أى إن
الذين عذبوه لا يعرفون من هو . وإلى أن قضية صلب المسيح قديمة جدا ، وأن
الصلب تم فى ليلة مظلمة عاصفة .

وأنه لابد أن يكون قد مات من الألم . ثم رفع . وبعضهم يفسر الآية القرآنية

التي تقول « وما قتلوه يقينا » ، على أن الصلب لم يتم حقيقة . وإنما هو مات من شدة الألم — وهذا رأى د . طه حسين أيضا ، وقد سمعته منه .

وقيل أيضا إذ كان الرئيس الكاثوليكي كنيدي قد قتل في وضوح النهار ، ولم يهتد البوليس حتى الآن إلى القاتل الحقيقي ، فكيف يقال إن أحدا على يقين مما حدث للمسيح منذ ١٩٤٠ عاما .

وإذا كان يهود القدس هم الذين ارتكبوا هذه الجريمة ، فما شأن أحفاد الأحفاد ! كلام قيل ، وأموال دفعت وتمت تبرئة اليهود من دم المسيح . ولم يعد الكاثوليك يلعنون اليهود في صلواتهم . ولكن ظل الأرثوذكس يفعلون ذلك !

وكان يرافقتي الأب قنواقي ، أحد رهبان الدير الدومينيكي في القاهرة وأحد المشتغلين بالفلسفة عموما . والذي ألف جمعية « اخوان الصفا وخلان الوفا » .

وفي ذلك الوقت كان الجو باردا ، وكنت ارتدى بلوفرا أسود ، وبنطلونا أسود ، وبالطو أسود . . وكان الناس ينادونني : بأدرى . . أي : أبونا — على أنني بهذا الزى أقرب إلى رجال الدين . ولو رأوا ماني يدي من كتب ومنشورات لتحققوا من أنني فعلا من رجال الدين المسيحي ، أو على الأصح من المتابعين له . .

ولم تنته دهشتي من أن يكون البابا معصوما من الخطأ ، لأنه ظل الله على الأرض — كل ما يفعله وما يصدره صواب ولا راد لحكمه أو قضائه — هل هذا ممكن ؟ وإذا أمكن هل هذا معقول ؟

* * *

وفجأة وأثناء إحدى ندوات العقاد سألني : إن كنت رأيت مسجد أبي العباس
المرسى في الإسكندرية .

فقلت : لم أراه .

قال : اذهب يا مولانا واتفرج عليه .

ولم يقل العقاد شيئا أكثر من ذلك . . . وبعدها بيومين سافرت إلى الاسكندرية
وتأملت كثيرا في المسجد . ولم أجد شيئا غير عادي . وإنما لاحظت فقط أن بعض
الآيات القرآنية قد كتب خطأ . ولم تصحح أخطاء هذه الآيات إلا منذ وقت قصير جدا .
وعدت أقول للعقاد : إنني ذهبت ورأيت ولم أجد شيئا غير عادي .

فقال : ولا حتى نفسك !

قلت مستدركا : طبعا شيئا من الوقار والعطف على هذا الرجل الطيب .

فقال العقاد : يا مولانا . . إن حياة الرجل أحسن من مسجده ومن ضريحه ..
وأحسن من هؤلاء الدراويش .

ثم قال العقاد : إن الشيخ أبو العباس المرسى مسئول عن وقوع المصريين
في أخطاء تدل على جهلهم . . وأنا أعتقد أن كل واحد اسمه : مرسى فمن المؤكد
أن أباه جاهل تماما . لماذا ؟

وقال العقاد إن أبا العباس المرسى سمي المرسى نسبة إلى مدينة مرسية في أسبانيا .
فإذا جاء واحد وأسمى ابنه المرسى كان ذلك دليلا على أنه لم يفهم معنى كلمة
المرسى أو يعرف كلمة مرسية !

وقال العقاد : أنا زرت مساجد كثيرة . . لم تبهرنى العمارة ولا النقوش . .
ولكن مصدر إحساس بالعظمة تابع من داخلى . . فأنا أتذكر حياتهم وجهادهم
وعذابهم مع الناس . . ولذلك أشعر بالحزن والعطف والاحترام فى وقت واحد !
وهذا هو ما أشعر به . . فأنا أمام هذه الأحجار أو اللوحات أو التماثيل استحضر
حياة هؤلاء البارزين فى الإيمان والتقوى والزهد والعلم والفن . . واستحضر
صورهم أو حياتهم أو جهادهم هو الذى يجعل قلبى ينبغى لهم . فإذا انحنى القلب
تساقطت عليه الدموع . . وكأنها ترمى عليه . . أو كأنها تقبل الأرض التى آوت
الأجسام الكريمة الصافية السامية .

* * *

وعندما توفيت أمى منذ عامين أحسست أننى طفل فطموه فجأة وحرموا
عليه المراضع كلها . . فلا لبن ولا ماء ولا صدرا حنونا : ولا معنى لأى شئ
أعمله . . فقد كان يعينى أن أكون عندما تريد أمى .

فلا معنى للحنان إلا عليها ، ولا معنى للامتنان إلا منها . . ولا معنى للوفاء
إلا البر بها . . إنها تعبت وحق لها على أن أظل أعطيها وأن أكون لها ، لعلها ترضى .
وكانت ، يرحمها الله ، راضية دائما .

وندمت بعد وفاتها إننى لم أفعل كذا وكذا . . وأننى لم أجلس إليها طويلا ،
وندمت على أننى لم أفعل أن أترع منها شيئا تريده بعد وفاتها . . لم توصنى بشئ .
ولأنما كانت تطلب منى أن آخذ بالى من نفسى — ولا أعرف كيف . وأن أهتم بصحتى .
وأن أدفنها بعيدا عن أقاربها وعن أقاربى . وألا يمشى فى جنازتها فلان وفلان
من الأقارب والأخوة . واحترمت وصيتها .

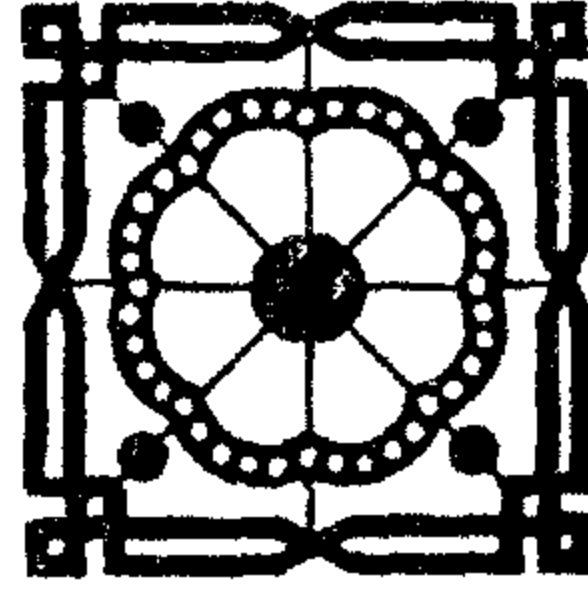
وأصبح قبرها مزارى . كل يوم . ثم كل أسبوع . . ثم كل يوم ثم كل أسبوعين ..
ثم كل يوم . . وتعبت من زيارتها ، فأنا لا أستطيع أن أمسك نفسى عن الدموع
والبكاء والعيول . وأنا أعلم علم اليقين . أنه لا أحد هناك . لا أحد . . هى تراب ..
لا شئ هناك . . وحرصت على أن أجعل قبرها أنيقا . وأن أزرع الأشجار
كأنها تنام فى ظلها . . وقبر أمى هو المكان الوحيد فى هذه الدنيا الذى أملكه . ومنذ
أكثر من عشرين سنة ذهبت مع الفنان حسين بيكار والفنان عبد السلام الشريف
نشتري قطعة أرض فى عزبة النخل . وكان المتر فى ذلك الوقت بخمسة قروش .
ولم أشتري . وكنت أقول : أتمنى أن يكون لى موطئ قدم أقف عليه وأجعل من
حوله سورا وأكتب عليه اسمى . . تمنيت أن تكون لى قطعة أرض باسمى . . وماتت
أمى ليكون اسمى على قطعة أرض فى مصر الجديدة !

فما الذى هناك فى أى قبر أو متحف أو مسجد أو كنيسة أو معبد يهودى أو بوذى
أو كونفوشى أو شنتوى أو زرادشتى . ما الذى هناك ؟ لا شئ . . لا أحد . .
فكل شئ فى الكتب . . ومن الكتب يتولد الحب والحنان والاحترام والكرامهية —
وكل ما نراه أمام أعيننا رموز متنوعة لأشياء وقصص ومعارك وفشل وانتصار ،
لأناس عظماء لدينا ، أو أعزاء علينا . .

فأنا لم أكن مثل عوليس أضع الشمع فى أذنى حتى لا أسمع ، فإذا سمعت انهرت
ووقعت ضحية لما أحب . بل إننى وضعت الشمع على كل حواسى أول الأمر . .
وبعد ذلك نزعته . ولم أعد أخاف أن أحب ، ولا أخاف أن أكره ، ولا أنزعج
أن أنهر وأن أعجب . . لم يكن طبيعيا ، لأى سبب ، أن أحرم نفسى متعة الحياة ..
ومتعة التأثر . . فكأننى ذهبت إلى كل مكان واستعدادى عظيم لأن أنحنى . . فإذا

رفعت رأسي إلى مكانه فوق كتفي انشغلت بشئ آخر .. بشخص آخر .. برمز آخر .
وكل شئ له معنى . . وكل معنى يستحق التفكير . . والذي له معدة ضعيفة
يعيش على « المسلوق » - أي الطعام الصحي الذي لا طعم له - فلا هو حلو ولا هو
ملح ولا هو حريف . . ولكن المعدة السليمة هي التي تأكل أي طعام وكل طعام ..
ثم تختار بعد ذلك أحسن الأطعمة وأنفعها وأرفعها . .
وقد حاولت عبر طرق كثيرة متداخلة معقدة أن أجده ما يناسب العقل والقلب
والمعدة .





من بعيد جداً تأتي مياه الأمطار والأنهار

من أين يأتي المطر ؟ كيف يسقط فجأة وبغزارة على مكان ما من الأرض ؟
إنه سؤال جغرافي . ولكن الشاعر الألماني ريلكه يقول في ديوان «الساعات» :
إنه ييجي من سماوات بعيدة . . ويتصاعد من أرض نائية . . وهناك فوق ومن مكان
في غاية السمو يتكاثف ، وتجيئ رياح وتدفعه إلى مكان لا يعرفه . . وفجأة يسقط
المطر .

وسؤال آخر من أين تجيئ مياه الآبار ومن أين تنبع الأنهار الجوفية تحت الأرض ؟
والجواب : إن هذه المياه هي الأخرى قد نزلت بها الأمطار واحتفظت بها
الأرض . . وتسربت وانطلقت واحتبس ثم عادت فتسربت . . ووجدت مكاناً

مناسباً في الأرض فهبطت على شكل آبار ، أو انطلقت على شكل نافورات — هكذا يقول الجغرافي العظيم همبولت . .

وأشياء كثيرة مثل ماء المطر تنبع من زمن بعيد في تاريخ أى إنسان . . وتتجمع وتبتدئ . . وتغيب وتطفو وتندفع إلى أعلى في الوقت المناسب . . في الطفولة أو في الشباب أو في الرجولة — إن كثيرين من الناس ولدوا مؤمنين . . وقليلون من الناس كبروا مؤمنين ، والنادرون من الناس أدركهم الإيمان قبل أن يدركهم الموت بقليل . . فكأن إرادة عالية شاءت أن يموتوا مؤمنين . .

ولو عدت إلى ورائي لرأيت بوارق كثيرة تؤكد أن شيئاً ما سوف يجرى في نفسي . . أو تجري به نفسي أو يتفجر فيها ، أو يتفجر بها . . فأحترق وأضيء في وقت واحد — هذا ما أدركته الآن ، أو أحاول ذلك . . ولم يكن ذلك واضحاً في يوم من الأيام . . فكل البيئة تنذر بالمطر . . تنذر بالبرق . . ولكن متى يجيء؟ كيف يجيء؟ لماذا يجيء؟ لا أدعي الآن أنني عرفت ، ولا في ذلك الوقت أيضاً .

إحدى البدايات لهذه الخيوط الطويلة المتشابكة التي صنعت شبكية بصيرتي لابد أن يكون أبى أو أمى . . أو هما معاً . . أو أمى فقط .

فأنا مرتبط بهما . . أو مرتبط بأبى أكثر . . لأننا نشأنا في عزلة . . مجموعة من الأغنام الخائفة من الذئب . . وكل ما حولنا ذئب . . لماذا؟ لا أعرف . . ولكن أصحو وأنام على الخوف من الناس ومن الزمن . . فكل الناس لهم أنياب . . وكل لحظة لها عقربان . . وكلها قد أعدت نفسها على الهجوم علينا . . ولم أسأل نفسي في أى وقت ولماذا علينا وحدنا؟ وماذا عندنا يغري الناس بالاحتشاد والتعبئة ضدنا؟ لم أسأل نفسي ولا أحداً في أى وقت . . ولكن لا يكاد يمضي

عام حتى نكون قد انتقلنا من بلد إلى بلد . . كأننا جزيرة عائمة وسط محيط هائج
مائج . . المحيط يتهدد ونحن نتبدد . . المحيط يعلو ويهبط ، ونحن متلاصقون معاً . .
خائفون معاً . . حول أماننا . . لا نعرف إلا هي . . ولا رأى إلا لها . . ولا حكمة
إلا عقلها . . فهي التي تعرف كل شيء . . وهي التي تنبأ بكل شيء وكنا ونحن
صغار - نسألها هكذا : وهل يجي خطاب من أبي ؟ فتقول حزينة : غداً .

ويجي الغد بالخطاب .

ونسألها هكذا : وهل يبعث أبي بفلوس ؟

فتقول : ثلاثة جنيهاً .

وتجي رسالة وبها ثلاثة جنيهاً .

وهل يشفي فلان من مرضه ؟ . . نعم بعد أربعة أيام . . وهل يهاجمنا الذئب ؟
نعم غداً . . ويجي الذئب في الغد . .

وكان الذئب يقفز من نافذة إلى بيتنا . . فالبيت في أطراف مدينة أبو حمص
على حافة حديقة . . وفي البيت دواجن وأغنام وديكة رومية . . ومعظمها يجي
أحد أقاربنا ويأخذها كل شهر . .

ولا أذكر أني ناقشت شيئاً من ذلك مع أمي . . فنحن حولها وإلى جوارها
وفي أحضانها في مكان أمين . . نحن نخاف وهي لا تخاف . . أو هكذا كنا نؤمن .

وفي أحد الأيام صهونا من النوم على ثعبان قد تكوم في الأرض . . لعله كان
يحتاج إلى دفء . . ونظرت إليه وأنا شديد الخوف . . ولم أنطق بكلمة . . فقد

وجدت أمى قد أحاطت بى . . وأغرقت أنا فى النوم . . ولعل سبب ذلك الخوف .
ولكن أمى أيقظتنى لتقول : هات المصحف . واقرأ .

ولم أستطع أن أنزل من السرير لآتى بالمصحف من مكان قريب من الثعبان ،
ولكن لا أدري كيف أننى نزلت . . ولا كيف اقتربت من الثعبان فلا هو تحرك . .
ولا أنا شعرت بشئ . . كأننى لم أتحرك . . وبسرعة أمسكت المصحف . . وقالت
لى : اقرأ سورة يس وأنا أردد وراءك . .

وقرأت . . وكانت تردد ورائى . . وضغطت أمى على يدى لأرى . . ورأيت
الثعبان كأنه عقدة تنحل . . أو كأن أصابع خفية ، أو كأن حروف القرآن قد
فكته عضلة عضلة . . وإذا بالثعبان يختفى تحت السرير . . ونزلت أمى من السرير

وأنت ببعض الأعشاب وأشعلت فيها النار . . وامتألت الغرفة بالدخان . . وعرفت
فيما بعد أن هذا هو « الشيخ » الذى يقال عنه الشيخ فى البيت مليح !

وفى إحدى الليالى تغيب والدى عن الحضور . . ولم تكن هذه عادته . . مضت
الساعات الكبيرة من الليل . . وجاءت الساعات الصغيرة الواحدة والثانية والثالثة
— ولم يحف لأمى دمع . . ولا لنا . . ولا نتساءل عن شئ . . لا كلام — بل تركناه
لهذه القطرات الساخنة على الخد . . تلهب العين والوجه معاً . . وفجأة طلبت منى
أمى أن آتى بالقرآن . . وأن أتلو وهى تردد ورائى . . وعندما فرغت من القراءة
سمعنا دقاً على الباب وفى نفس واحد قلنا : مين ؟

لعله عفريت . . لعله ذئب . . لعله لص . . لعله واحد من الناس . . وكل الناس
كذلك .

ولم يكن أحد فعلاً . . أو كان أحد وأدرك أننا لم نتم . . ثم اختفى . . مع أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً . . ما الذي تستطيع أم وأطفالها الصغار أن تفعل شيئاً في هذه الساعة من الليل ؟

وعادت أمي تطلب مني أن أقرأ القرآن الكريم . . وقرأت . . ولم أكد أفرغ حتى سمعنا دقاً على الباب . . ثم انفتح الباب . . إنه أبي . . وعرفنا تفاصيل الحادث . . كيف إنه اضطر إلى الشهادة في قضية اتهم فيها صاحب العمل الذي كان أبي يعمل عنده . . ودخل صاحب العمل السجن . . وفصل أبي من عمله .

وكان لابد أن نساfer إلى بلد آخر . . وسافرنا في السيارة كان أبي لا يفعل شيئاً إلا تلاوة القرآن . . وأنا أردد وراءه . . في الظروف الحزينة فقط نقرأ القرآن وننتظر المعجزة . . وكانت تجيء .

وعندما دخلت كتاب قرية كفر الباز مركز فارسكور . . كان صاحب الكتاب قريبي . . إنه أشقر الوجه أزرق العينين . . وعشرات من أفراد أسرة أمي كذلك . . فجدتنا الكبرى فرنسية مغربية مسيحية . . وكنا نضحك على أنها لا تعرف كيف تنطق العربية . . وكيف أننا أفضل منها . . ولم ألاحظ أنها كانت تجلس معنا في الكتاب . . لم أفهم لأنني لم أسأل . . وكنت أسمع ولم أفهم أيضاً . . إنها دفنت في مقابر أخرى غير التي دفنت فيها أفراد الأسرة . . وفي أحد الأيام طلب إلينا سيدنا صاحب الكتاب . . أن نذهب ليلاً ونسرق « كتاباً » آخر . . وهذا الكتاب لرجل ينافسه وأحسن منه خلقاً وأكثر صبراً على متاعب التلاميذ الصغار . . وذهبنا وسرقنا بعض المقاعد في الليل . . وعدنا بها لنجد سيدنا في انتظارنا . . ولما تنبه

بعض الناس إلى ذلك عاتبوه : كيف تعلم الأطفال السرقة ؟ ما الذى سوف يفعلونه
عندما يكبرون . فقال : يا أخى موسى عليه السلام قتل واحداً مصرياً !

وفى اليوم التالى اعتقل الخفراء واحداً من أقاربى بتهمة التعدى بالضرب على
رجل آخر . . وهذا المضروب قد مات فعلاً . . وذهبت إلى العمدة أقول له :
موسى قتل .

ويسألنى العمدة وهو قريب لنا أيضاً : أنت رأيته . فقلت : سيدنا هو الذى
قال .

واستدعوا سيدنا . وعدت أقول : أنت قلت : إن موسى هو الذى قتل .

وبعد ثلاث ساعات أعادونى إلى البيت . وتلقتنى أمى بالضرب العنيف . .
وكانت تضربنى كثيراً . . وكانت تنبأها بأنها كسرت على رأسى سعف النخيل . .
وأحياناً تقول خمسة وأحياناً تقول سبعة . . وكان يغيظ أمى ويضايقها جداً أنى
كنت أتلقى الضرب ولا أبكى . . وكانت تقول : انت إيه ؟ الضرب لا يوجعك .
لا يؤلمك . . لماذا لا تبكى ؟

وبعد ذلك بعشرات السنين ، عندما قرأت الفلسفة الوجودية وجدت معنى ذلك .
فليس أقسى من أن تنظر لإنسان . . ولا تتكلم . . فهو يختار . . ما الذى تقوله عيناك
ولا يفصح عنه لسانك . . هل أنت تلعه . . هل أنت تحتقره . . هل أنت تستهين
به . . وعرفت ذلك عندما تضرب السيدة فى البيت خادماتها . . فلا تنطق . . فهذا
يضاعف من ألمها . . وتشعر السيدة أن الخادمة تضربها بسيطا من نظراتها . . وأن
هذا هو أقسى انتقام . . ولذلك تجد السيدة نفسها مضطرة إلى أن تدفع الخادمة

إلى الكلام . . أى كلام . . وهنا تستريح السيدة وتقول : هكذا . . إنطقى . .
إنكلمى . . قولى : آه ! . .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى كتاب آخر . .

وبعد ذلك بأيام أخذتنى أمى إلى بيت إبراهيم باشا عبد الهادى ، أحد أقاربها
وطلبت منه أن ينصحنى . . ولكن الباشا لم يقل شيئاً ، لأنه لم يعرف غلطى . .
فقلت أمى : إنه لم يعد يقرأ القرآن . . إنه يضرب الأطفال كل يوم . . وكل يوم
أقع فى مشاكل . . وكثيراً ما أتوا به من فوق النخيل وأشجار التوت . . وقد
سقط مرتين . . وقد غرق منذ أيام فى النيل مع أنه لا يعرف السباحة . .

ولا أعرف من كل هذا الكلام ما الذى استراح إليه الباشا . . فقد أدنانى منه . .
ووضع يده على رأسى وهو يقول : ما شاء الله . . عندك كم سنة . .

فقلت : ثمانى سنوات .

وعادت أمى إلى البيت لتقول لى : أنا قلت ألف مرة . . لست كأحد من الناس . .
لابد أن تعرف إننا مختلفون . .

ولم تدونحنى عبارة قالتها أمى . . أو سمعتها فى حياتى مثل هذه العبارة . . فنحن مختلفون
لماذا ؟ هل لأننا غرباء فى كل أرض . . هل لأننا مثل عائلة « روبنسون كروزو »
فى جزيرة مهجورة أو كأنها مهجورة . هل لأن الناس كلهم يملكون أرضاً . ولا نملك . .
هل لأننا مثل الكرة . . مرة كرة قدم . ومرة كرة يد . ومرة كرة طاولة . . وكل يوم
يضربنا المجهول إلى أرض بعيدة . كأنه مكتوب علينا ألا نستقر عند هدف . . عند شبكة .
صحيح . نحن غير الناس جميعاً . ولكن لماذا ؟ لم أعرف . إذن لأننا مختلفون عن الناس .
ما الذى نفعله ؟ يجب أن نفعل شيئاً آخر . ما هو الشئ الآخر ؟ هذه هى المشكلة .

أى تقول : أن أولادى مثل البنات . يضعون وجوههم فى الأرض إذا أحد تحدث إليهم . ويقفلون على أنفسهم الأبواب إذا زارتنا جارة أو قريبة . أولادى أصواتهم منخفضة لا يرفعون صوتا ولا عينا ولا يداً على أحد . هذه تربية . أولادى فى حالهم . من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت . أولادى ليس لهم أصدقاء .. فالتاس أشرار جميعا . ربنا قال ذلك فى القرآن ! ..

ولكن أى لم تشأ أن تقول أننى أخرج فقط عندما يكون هناك ميت . ورجل يقرأ القرآن . أجلس فى مكان قريب من باب الصوان . فقد حدث كثيراً أن جلست فى الداخل . وجاء واحد وطلب إلى أن أنهض ليجلس هو . ولذلك أجلس بالقرب من الباب حتى إذا أنهضنى أحد ، لم يشعر الحاضرون بذلك .. أما الموالد والأفراح حيث الرقص والغناء فلا أذهب مطلقا . ولعل من أسباب ذلك أن الأطفال قد تشاجروا معى ومزقوا ملابسى وهذا ما لا يحدث فى المآتم ..

وفى سن مبكرة أصبح مرء كذاً أننى تلميذ مجتهد . وأن ترتيبى يكون الأول . وأن هذا يدهش الناس . ولكن أى لا تعلق على ذلك بشيء . ولا أظن أنها قالت لى مرة واحدة : مبروك أو أى شئ له مثل هذا المعنى . وهى معذورة . فهى لا تقرأ ولا تكتب .. وهى مشغولة بأشياء أخرى : بالطعام وتأميننا من الخوف . والبيت كله . وربط أمتعتنا ووضع الكثير منها فى جانب من البيت ، انتظاراً لخطاب يحىء من أبى يقول لنا : استعدوا نحن ذاهبون إلى بلد آخر .

ووجدت نفسى صديقا للعجر فى كل مكان . بل أننى كنت أبحث عنهم . شعور غريزى هو الذى هدانى إليهم . ربما لأننى مثلهم . ربما لأننى من أسرة حائرة دائرة باثرة عائرة . وأننى مثل هؤلاء العجر أقيم فى بيت من القش فى مهب الريح

والذئاب والخوف . . وأنتى قطعة حجر متحركة . ولأنتى متحرك فلا عشب ينمو على حياتى .

لا صداقة . لا زمالة . لا محبة . لا جيران . لا إخوان . لا أحد لا أحد . كأننا خارجون على القانون . كأننا على الشقة الحرام بين الحياة المدنية وحياة الغجر . . وكنت سعيداً بطفلة صغيرة ألعب معها . ولا أعرف الآن ما الذى كنت أقوله لها حتى يجىء الظهر بسرعة . . ويجىء العصر بسرعة . ويدخل الليل دون أن نشعر به — ولا ما الذى جعلنى أنقل لها ما أستطيع من السكر ومن الأرز والصابون . . وربما ضربتنى أُمى بعد ذلك عندما سمعتنى أقول لها : عندما تكبر ستزوج . وحياة كتاب الله .

وأقسمت على المصحف . واختفت هذه الطفلة الساحرة وعالمها المسحور . عالم الغجر . . وكنت أحس دائماً أنتى واحد منهم ، أو يجب أن أكون !

وعندما تقدمت فى الدراسة الابتدائية أحسست بشيء من الحرية . وكنت أذهب إلى أبو حمص على ظهر حمار . ونجمع قصص أرسين لويين . وكان يعدها لنسا صديقنا رمضان عطيه ابن صاحب محل فول عطية البكاش . وهو الآن صاحب المحل . ويقال صاحب تاكسيات . وكان يرافقنى صالح مخيون . وهو أبو الممثل الشاب المعروف صالح مخيون أيضاً . وانشغلت بهذه القصص البوليسية عن الطعام والشراب . وفى كل أسبوع أقرأ عشرًا من روايات الجيب التى كان يصدرها عمر عبد العزيز أمين . . لأنه عالم عجيب غريب . ولكنه مثير وممتع . وهذه الروايات جعلتنى أتجه إلى هذا النوع من المتعة . ولم أعدل عنها إلا فى سن متأخرة عندما وجدت فى المنصورة كتب الأستاذ محمد صبيح عن الرسول وأبى بكر وعن القرآن وكانت هذه الكتب صغيرة . ورخيصة . ولها أغلفة لافئة يرسمها الأستاذ عبد السلام الشريف . واقتنيت كل هذه الكتب .

وهي مختلفة تماماً عن روايات الجيب . وإن كانت متشابهة من بعيد : فهي جميعاً تبحث عن حقيقة شيء حتى نهتدى إليه ..

وأول خروج من هذه القراءات كان عندما عثرت على رواية حسين عفيف واسمها « زينات » . وهي رواية رومانسية شاعرية وفي غاية الرقة والجمال . إنها عالم آخر : أنعم وأرق . كل شيء فيه همس ولمس . وأسى وأمل .. أول مرة أعرف شيئاً اسمه الحب . ولم أكن عرفت هذه الكلمة . ولا معناها . ولا قوتها . كأنني كنت مسلوب الغرائز . وإنما كانت كل غرائزي هي : الخوف من كل شيء حولي . ومن كل ما أقول وما أعمل ومن كل دخول وخروج . ومن المدرسة ومن المدرسين ومن الامتحان . وأن تتمزق ملابسي . وأن يتسخ حذائي . وأن أسهر كثيراً فينفد غاز المصباح . وأن أجلس إلى جوار الحائط فأصاب بالروماتيزم وأسعل مثل أمي التي تمزق صدرها من السعال والدم خوف في خوف .

وعرفت مجلة « الرسالة » التي يصدرها أحمد حسن الزيات . وعرفته هو بعد ذلك طالبا وصديقا . وآخر خطاب كتبه في حياته هو الذي بعث إلى به . وشكرته على حسن ظنه وتقديره ، يرحمه الله . وفي الرسالة اهتديت إلى العقاد . وكان العقاد نوراً باهراً . وسلاسل ذهبية . وجسراً من الصلب .. ونافذة على كل الدنيا . وقوة طاغية . واتجه عقلي إليه .

وقلبي بعد ذلك . ومنذ ذلك الوقت وهو لا يغيب عن عيني وفكري . بل إنني وأنا طالب في المنصورة الثانوية كنت ألف حول عنقي كوفية كما كان يفعل العقاد .

ومن الغريب أنني كنت أمشي مثله ، مع أنني لم أره في حياتي . ولكن قيل لي ذلك

من الذين يعرفون العقاد . وكنت لا أقرأ الرسالة التي ليس بها مقال للعقاد . فأنا أشتريها من أجله فقط . ولا أدعى أنني كنت أفهم العقاد . ولكنني كنت أنظر إليه كعمارة عالية شامخة . ولها جدران متينة . ولها أعمدة من الخرسانة المسلحة . إنه شيء قوى ولكن ما الذي تمثله هذه القوة ؟ لا أعرف .. ولكن أعجبنى تسلسل فكره . ورأيت في ذلك نمطا من التفكير . أو قواعد للسير . أو سلما صاعداً إلى لا أعرف أين . وكان هذا هو الذي ينقصني : أن أجد طريقا . مرسوماً .. أن أجد علامات واضحة . أن أجد مصاييح على الطريق . أن أعرف من أين وإلى أين . وبدأت أفكر .

ودخلت التوجيهية أدبي . وكان ترتيبى الأول . وترتيبى الأول في مسابقة الفلسفة . وكان من الذين ترتيبهم الأول في الأدب . د. عبد الغنى محمود عميد كلية زراعة القاهرة .. وآخرون لا أعرف أين هم . من بينهم د. عبد الفتاح محسن الأستاذ في الهندسة الآن . وكانت مثلنا العليا في ذلك الوقت هم الطلبة النابهين . وكلهم من الشعراء مثل : ماهر قنديل الكاتب اللامع في مجلة « حواء » الآن . وعوض الدحة — لا أعرف أين . والشاعر البشيشى وهو أيضا لا أعرف مكانه وأصبحت ميولى أدبية فلسفية . واتجهت إلى الفلسفة . وبهرتنى . وأطاحت بى بعيداً جداً عن أى شيء . أعطيتها نفسى . فأخذتنى ولعبت برأسى وقلبى . وأصبحت ورقة فى مهب الريح . وكنت أطمئن نفسى بنفسى وأقول : ما من شجرة إلا هزتها الريح . ما من سفينة إلا هزها البحر . فالاهتزاز حركة . والحركة حياة .

صحيح أن الاهتزاز ليس هو الانتقال . ولكن من الذى كان يشغل باله بالانتقال إلى مكان ما . أو إلى مذهب ما . أو رأى ما . لا أعرف شيئاً بوضوح . فأنا أجلس فى حانة الفلسفة وأشرب كل ما يقدم لى . وأهتز طرباً .. كل شيء جديد . وكلها

أسلحة في يدي أطلقها على كل المقدسات . وأفرح كما يفرح طفل بالحب . يطلقه على الناس هنا وهناك . ويفزع الناس ويسعده فزغهم ..

وفي يوم عاد والدي إلى البيت ليجدني جالسا على السرير مريضا . ولكنه رأى شيئا غريبا حقا . فقد وجدني أضع رأسي في غطاء ماكينة الخياطة . فسألني : ماذا تصنع ؟ وكانت المفاجأة . لقد كنت أرتل القرآن وأسمع صداه في نفس الوقت . عندما وضعت رأسي في غطاء ماكينة الخياطة . وكان هذا الغطاء في ذلك الوقت نصف اسطوانى . وعرف من والدي أنني أفعل ذلك كثيرا . ودارت مناقشة أفرغتني . هو يقول : ألم أقل لك أنه يجب أن يدخل الأزهر . وهي تقول : لا يمكن .. إن أقاربك مهندسون وأطباء وأساتذة في الجامعة .. ولا يمكن أن يكون ابني من رجال الدين مثل أخيك .. يستحيل .. ويستحيل أن يكون مقرئا أو مؤذنا .. والا ..

و « الا » هذه معناها أن تجمع أى ملابسها وأن تتعلق بها وتعود إلى بيت أهلها .. فهناك طعام أوفر . ومكان أوسع .

وكنت أشفق على والدي . إنه طيب .. مرهق . مهذود . بعيد عنا . وفي الأيام القليلة التي يمكنها معنا يسمع كل مشاكل الدنيا . وربما لذلك لا يبقى معنا كثيرا . ولم أعرف أين الحقيقة في ذلك الوقت .. وعندما كبرت عذرتهم معا !

وعندما قرر والدي السفر بعيداً عنا قلت له : إني رأيت النبي في المنام !

وكأنتى ارتكبت جريمة . أو أتيت عملا قظيعا . بشعا : فقد تغير لون وجهه . وفزعني . وعندما اقترب مني أبى . قلت : لا .. لم أره .. ولكن تهيأ لي ذلك !

ولكن أبى هدأ روعى . وأجلسني إلى جواره وطلب مني أن أروى بالضبط ما حدث .

ورويت له . إني رأيت شخصا مضيئا . وسط عدد كبير من الناس . وأنه جاء إلى هذا البيت . واندھشت كيف دخلوا من البيت . ونهضت من نومي وقد وضعت يدي على عيني . فلم أستطع النظر إليه . وسألني أن أشرح له بالفعل ما رأيت .. كيف كان وجهه .

قلت : لا أعرف . لم أره بوضوح . ولكن سمعت من يقول أنه هو . سمعت صوتا في داخلي . لا خارجا عني ..

ووجدت أبي يقبلني ويكي . ثم وجدته يؤجل سفره . ويصحبني إلى أحد العلماء . ويطلب مني أن أروي له ما حدث . وسألني الرجل العالم كيف رأيته . فقلت له : وسألني إن كنت قد قرأت شيئا قبل النوم . قلت : لا . قال : لعلك نسيت . قلت : كنت أذاكر ..

وهناؤا والدي . لا أعرف على أي شيء . وتغيرت ملامح والدي . وأصبح أكثر رقة . وقال : يا ولدي لقد ندمت على أنني سمعت كلام والدتك . ولم أدخلك الأزهر الشريف ولكن الله سوف يكرمك ويسترلك . ويكرم بك الآخرين . الله يفتح عليك !

وفي الجامعة كان يدرس لنا الفلسفة الإسلامية الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق . ولم أر شيئا بهذه الرقة وهذا الوقار . وهذا العلم . وكان يتفنى بالتاريخ الإسلامي . وكان يطلب إلينا ألا نقرأ كثيرا وإنما أن نتأمل . وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق أنيقا في ما يسه وفي كلامه . وكان لا يمشي على الأرض وإنما يطفو عليها .. كأنه بلا حجم ولا وزن مادي . كأنه روح — أو هكذا كان يبدو لنا .

وكان يدرس لي التصوف د. مصطفى حلمي . وكان رجلا أعشى . وكان مرحا محبا

للنكتة . ولا أنسى يوما عندما كان يشرح فلسفة محيي الدين ابن عربي . فكان يقول :
المطلوب هو أن نفسر الكون من تحت لفوق ومن فوق لتحت كما يقول شكوكو .

ثم يقول : هذا شعر منشور ، ونثر مشعور ، إن صح هذا « التعبير » يا أنيس
يا منصور !

طراز آخر من الدراسة الدينية والفلسفية والصوفية ..

وقد نصحني د. مصطفى حلمي أن أكتب رسالة عن « الحلاج » وعن الصوفية عموما ،
لأنه يلمس في كتابتي نزعة صوفية شفاقة وضاعة - على حد قوله .

ولم أكن لاحظ ذلك . ولا أعرف كيف رأى ذلك في نفسي أو في المقالات القليلة
التي أكتبها ..

وفي هذه الأثناء وقع في يدي كتاب للدكتور عبد الرحمن بدوي اسمه « من تاريخ
الاحساد في الإسلام » . هذا الكتاب اعترض طريقى ، وطمس عيني ، وتشعبت تحت
قدمي السبل . وامتألت الدنيا حولي بنجوم تشد يدي إلى هنا .. بل إلى هناك .. بل ..
لا هنا ولا هناك .. وإنما الضياع هذا هو الحل الوحيد لكل مشاكلنا . الا نقول لا ولا نعم
أن نتوقف عن الحكم على شيء . لأنه لا شيء هنا أو هناك ؟

وامتدت يدي إلى اعترافات القديس أوغسطين الذى آمن بعد العشرين من عمره .
كان له دين آخر . وكانت أمه تتبعه من إيطاليا إلى قرطاج في تونس . وكانت تصلى
من أجله . وكان القديس أوغسطين يقول : أن مونيكا أمى هي مصدر تعاستى . أريد
أن أرضيها . ولكنى لا أعرف كيف . أريد أن أكون مسيحيا كاثوليكييا قبل أن تموت .
ولكن قلبي لا يطاوعنى . وعقلي قد تمرد على قلبي منذ وقت طويل . فأنا لا أرى ما تراه .

ولا أسمع ما تسمعه . ولا أدري من تصلى له . ولا أرى نوراً في السماء ، ولا نوراً في قلبي .
اللهم اهدني إليك ، اهدني لكي أسعد أُمي ..

وعندما سافر القديس أوغسطين بأمه إلى روما ماتت في عرض البحر . وحزن عليها ،
وحزن أكثر على أنه لم يكن قد وضع أبحاثه تماماً . وآمن بعد ذلك .. ولكن بعد أن
ماتت أمه بسنوات . وكان ندمه على أبحاثه عظيماً . فقد آمن وماتت أمه دون أن تعرف
ذلك . ولكن لم يذب أمله في دموعه . فالموت جمعهما معا . والتقيا فوق ..
في السماء !

وهي تجربة عظيمة قام بها القديس أوغسطين .. فاعترافاته مشبوبة النار والشرار .
وهي دافئة سخية مقدسة ..

واهتديت إلى كتاب « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالي . وهزني هذا الكتاب .
لأنه كلمني بعبارة مودرن . أنني اقرأ فيه أجمل وأروع ما كتبه الفيلسوف الفرنسي
ديكارت في كتابه المشهور « مقال في المنهج » . فهو يبدأ بالشك ثم ينتهي إلى اليقين .
ولكن الغزالي أبسط وأروع وأعمق . ولكن ديكارت أكثر تعمقا في علم النفس والمنطق .
والغزالي ما يزال أروع . تجرد من كل شيء ليؤمن بكل شيء . نزل إلى كل بحر ، وطاف
كل محيط ليرسوا على بر الأمان بالعلم والإيمان .

هداني الغزالي . وثبت الأرض تحت قدمي . وثبت الدنيا كلها أمامي . هنا السماء
وهنا الأرض . وهنا العقل وهنا النقل . وهنا الكتاب وهنا الحديث وهنا الاجتهاد . ولكن
أين الوقت ؟ نعم أين الوقت للتأمل في كل شيء ، ونحن ما نزال طلبة نغرق في الكتب
ولا نرفع رؤوسنا الا بعد الامتحان . حتى إذا انتهى الامتحان . كانت رقابنا قد
انكسرت من القراءة . وظهورنا من الجلوس وعيوننا من الضوء الضعيف والحروف

الصغيرة . وكان علينا أن نستريح وأن نواصل القراءة وأن نبحث عن لقمة العيش .
وفي البحث عن لقمة العيش كان من الصعب أن نعيش ، وإذا عشنا من الصعب أن
نواصل القراءة ، وإذا قرأنا فحاجتنا إلى القراءة شديدة . وما أكثر ما يصدر من كتب .
وما أصعب أن نمضغ ما ابتلعناه . وما أشق أن نهضم ما مضغناه . وما أعسر أن تمتص
امعاوتنا المرتجفة كل ما هضمناه ..

وأذكر ما قاله جان جاك روسو في الصفحات الأولى من « الاعترافات » يقول :
ماتت أمي . وحزن أبي . وكان يذكرني دائماً بها . وكان يقول لي أنت صورتها الحية .
ومع ذلك مات أبي في أحضان زوجة أخرى .. وفي إحدى المرات سألتني : أنت
لم تعد تذكرني بأهلك . فقلت : إذن لنبك معا ..

ويقول روسو ، هذان هما الاثنان اللذان ألفا كتاب حياتي . والآن أنت تعرف لماذا
جئت شديد الحساسية وشديد الرقة . وكان أبي سعيداً برقتي وعطفي ، ولم يعرف أنني
أشد تعاسة منه بذلك !

فالإنسان كما صنعه أمه .. أو ذكرى أمه . فستقبل أي طفل هو ماضى أمه !

وآدم قد أسى زوجته « حواء » ومعناه حياة ، لأنها أم الحياة كلها !

وتذكرت حواراً لأوسكار وايلد في مسرحية « امرأة لا أهمية لها » :

— كل النساء مثل أمهاتهن . وهذه مأساتهن .

— لكن الرجال لا يفعلون ذلك . وهذه مأساتهم !

ولا أعرف بالضبط الآن لماذا كنت أتحامل على أم الفيلسوف الألماني شوبنهاور

فهذا الفيلسوف متشائم . ولكن تشاؤمه في غاية الروعة والجمال .

ويقال إنه حاول أن يدخل إلى الصالون الأدبي الذي أقامته أمه في بيتها . لا لشي
الا لكي يعرض إنتاجه الفلسفي على الشاعر العظيم جيته . ولقي أمه على السلم . وغضبت
من أنه دخل بلا إذن .. وثارت عليه . وصرخ فيها : مهما فعلت .. ومهما قابلت .
فلن يعرفك أحد إلا بأنك أم شوبنهاور !

وقد حدث ذلك . ولما قرأت عن شوبنهاور أكثر . عذرت أمه . وأنا أعذر كل
الأمهات . لأنني أعذر أمي . وأرى أنها مضطرة إلى القسوة على أبنائها . فالحياة أقسى
عليها من قسوتها على أولادها . وهي لا تفعل ذلك إلا مضطرة . ولا أقول كل الأمهات ،
ولكن بعض الأمهات !

ومن غير مناسبة كتبت مقالا في مجلة « كلية الآداب » عن الأم . لا مناسبة أبداً
إلا في داخل نفسي . والمقال أمانى الآن . وأجد فيه هذه الآيات :

« وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .. « والسلام على يوم ولدت
ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .. « ولا تضار والدته بولدها ، ولا مولود له بولده » ..
« أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك » .. « وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » ..
« اتقوا ربكم وأخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده » ، « ولا مولود هو جاز عن
والده شيئا » .. « لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا » .. « يسألونك ماذا
ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل
وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » .. « لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا » ..
« أن أشكر لي والوالديك إلى المصير » .. « وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً » ..
(ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » .. « لن تغني عنهم أموالهم
ولا أولادهم من الله شيئا » .

وآيات أخرى كثيرة . ولا بد أن يكون سبب ذلك إحساسى بأننى سوف أخرج
فى الجامعة . وسوف يكون على أن أؤدى ما يجب . أن أفعل لوالدى ما فعلاه من
أجلى .. إنهما فعلا ما يستطيعان . وما يستطيعان قليل جداً . ولكنهما فعلا وأعطا كل
ما عندهما من المال والصحة والشقاء والهوان .. وكأنتى كنت أعاهد نفسى على أن
أفعل من أجلهما شيئاً .

وفى يوم غريب مات أبى . كان مسجى على فراش فى عوامة فى النيل تملكها أختى
الكبرى . واستدعانى قبل وفاته بساعات . وانزعجت يوم استدعانى . فقد حدث ذلك
أكثر من مرة . عندما استدعانى بعض أقاربى ليقول آخر شئ .. وذهبت وأنا لا أستطيع
أن أراه مريضاً . ولا أقوى على حزنه المكتوم وألمه الدفين .. ومن الذى يستطيع .
وقربت منه وقبلت يده . وسحب المصحف من تحت رأسه ليقول : تعدنى أن تدرس
دائماً . فلا شئ يرفع أحداً إلا العلم . قلت : أعاهدك .

وأرجع رأسه إلى الراء ليسألنى وكل أمل الدنيا وسعادتها فى عينيه . قال وكأنه
لا يسألنى : نجحت يا ولدى . قلت : الحمد لله .

— وكان ترتيبك الأول .

— نعم .

— وماذا تصنع بعد ذلك ..

— قابلت د. شوقى ضيف . وسوف يبعث بى إلى د. عبد الوهاب عزام .

— لتفعل ماذا ؟

— لأعمل .

— وبعد ذلك .

— انفق على صحتك وعلى صحة أمي .

— الحمد لله ..

وتراجع برأسه إلى العالم الآخر . ولم أجد في عيني دمعة . لقد أخذها معه . إلى حيث لا أعرف . أين دموعي ؟ أين حبي له ؟ أين خوفي عليه .. وما معنى هذا العهد . ولماذا يموت يوم نبحث . وما الذي أدرسه هل هو القرآن فقط .. أم أنه جعلني أقسم على القرآن أن أواصل العلم . العلم ما أوسع .. وقد أخذت من كل العلوم : الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال وتاريخ الأديان كلها ..

ولم أمش في جنازته . لقد مات في قلبي . في أعماقي . فكل خطوة أخطوها هي جنازته فأنا أضحك معه وأراه في يقظتي وفي نومي ، وفي يقظتي أكثر . وهذا الذي أراه هو الذي دفعني إلى الإيمان بعالم الروح . فالذي أراه بهذا الوضوح لا يمكن أن يكون وهما — وهذه قصة أخرى طويلة ..

وقصص أخرى طويلة .. فالبدايات لكل شيء بعيدة . ومعقدة . وترجع إلى الطفولة والشباب والرجولة . وإلى تجارب الحياة ومعاناة الفكر ، والعناء في الاهتمام إلى ميناء على شاطئ بحور الإيمان بالأديان ..

وفكرت — ولا أعرف لماذا بعد وفات أبي — أن أوّلف كتابا عن الرسول عليه السلام . ووجدت أنني لا أستطيع . فأنا لا أعرف شيئا له قيمة من الدين . وكتب الدين التي قرأتها قليلة . فأنا أولا ثقافتى غربية وثانيا عربية وثالثا دينية عامة ورابعا إسلامية .. إذن فأنا لست مؤهلا لشيء من هذا . ولكن استطاع أساتذة كبار أن يفعلوا ذلك : استطاع العقاد وطه حسين والحكيم وقبلهم محمد حسين هيكل .

وكننت قد عرفت الساخر الشاعر الممزق كامل الشناوى . وفى يوم سألنا : من الذى يمكن أن يدخل الجنة من كتاب سيرة الرسول : الدكتور هيكل أو طه حسين أو العقاد أو الحكيم ؟

وانفتح باب للمناقشة . واختلفنا فيمن الذى يستحق الجنة ولماذا .

فقال كامل الشناوى : ولا واحد من هؤلاء فقد كسبوا من كتبهم عن الرسول ألوف الجنيات . ولذلك لا يستحقون أجراً من الله على شئ .. لقد صفوا حسابهم مع الله ورسوله !

وعلى الرغم من أنها عبارة ساخرة ، لكنها استقرت فى نفسى . وأوقفت كل تفكير فى إصدار كتاب عن الرسول . ولا بد أن تكون رغبتى فى إصدار هذا الكتاب هو إحياء ذكرى « محمد » الذى هو والدى أيضا . أو هو نزع من الامتنان له .. ولكن ما قيمة الامتنان لمن لا يشعر به . مات . راح . ولم يشأ الله أن أصنع له شيئا . أن أكافئه على ما بذل من أجلى ومن أجل إخوتى . ولم أنسه يوما . وإنما كلما أكلت شيئا . أو سافرت إلى مكان . أو لبست . أو كسبت أقول لنفسى : لو كان والدى حيا ..

واعتقد أنى أعطيت أمى كل ما تمنى ، وكل ما تمنى والدى أيضا . وأسعدنى ذلك . وأشقانى أيضا . فأنا أتمنى الكثير لها . ولكن لا أقدر إلا على القليل ولم أفصح فى أن أقنعها بعلاج . وكانت تخفى عني مرضها حتى جاء الموت فأنقذنا نحن الاثنين من مرضها ومن حزنى عليها ..

وكننت أخاف على أمى أن تذهب إلى الأرض المقدسة ، فالرحلة شاقة . وهى مريضة وربما ماتت هناك وكننت أقول لها : أن البحر مياهه جفت .. وأقول أن ألوف الحجاج قد ماتوا من ضربة الشمس .

وكانت تقول لى : ولكن أحداً لا يقول شيئاً من ذلك . فأقول لها : اننا نعرف ذلك فى الصحف . ولكن الدولة لا تسمح بنشر هذه الأنباء حتى لا ينزعج الناس !
وكانت تسكت مصدقة . أو تبدو كذلك . وقبل وفاتها بسنوات وجدت لها صديقة وقررت الاثنتان أن تسافرا لأداء فريضة الحج . ولم أجد حلاً لهذا الموقف . وخشيت عليها من مشقة الطريق . ويشاء الله أن تموت هذه الصديقة . وكان حزن أمى كبيراً ، إنها كانت تتمنى أن تموت هناك .. ولكن هذه مشيئة الله ..

ووعدها أن هى شفيت أن أساعدها على حج بيت الله . وأقسمت على ذلك .. واختارها الله إلى جواره وفى قلبها نية الحج إلى بيته ، وفى قلبى أمل أن أحقق لها ذلك ..

وعرفت الطريق إلى قبرها . وفى يدي كتاب الله ، أقرأ وأقرأ . وأهدى ما قرأت إلى روحها ، والتي أعلم أنها ليست هناك فى قبرها . فالأرواح ليس لها « مكان » .. ولكن لم أفكر فى ذلك . وكل يوم فى يدي هذا الكتاب . أقرأ وتجبف دموعى . وهى التى استعصت على عيني يوم مات أبى . فكأننى أبكيهما فى وقت واحد ..

وأحسست بالموت . وأحسست بأننى وحدى فى هذه الدنيا . الكل مات . لم يعد أحد . لم أستطع أن يكون لى أحد . وليست حياتى كلها إلا محاولة مستمرة ألا أكون وحدى . وألا أكون بمفردى . فإذا قرأت فلأننى أريد أن أسمع صوت إنسان آخر .. ولما اشتغلت بالكتابة وجدت إنتى أقول للناس ولا أسمع ما يقولون . ولما اشتغلت بتدريس الفلسفة فى الجامعة ، فلكى أرى واسمع ما يقول الناس .. فأنا كنت أفكر بصوت عال . وأسمع منهم ما يعجبهم وما لا يعجبهم . وبذلك لا أكون وحدى . وإذا أغرقت نفسى فى الناس فلكى لا أجدنى وحدى .. ولكنى ظلت وحدى . وكلما وجدت

نفسى بكيت على حالى . وأدركت أن هذه أيضا نهايتى ، كما بدأت خائفا سأموت خائفا . لقد ولدت لكى أموت كما ولدت : فى الوحدة . والخوف . لا شئ لى . لا أملك شيئا . ضاع كل ما كان لى . راح الأب والأم .. راح الوريث والشریان . راح القلب والعقل . راحت البداية وسوف تأتى النهاية بسرعة .. وفى مكتبى أقفل الباب وأبكى . وإذا سمعت طرقا على الباب وضعت القطرة فى عينى .. حتى أصبحت أنجبل من نفسى .. وأنجبل من عجز الناس عن التصديق .. فهم لا يعرفون ما الذى أبكيه ولا ما الذى أبكى عليه .. إتنى أبكى على نفسى .. بعضى يبكى على بعضى .. إتنى أندب ميتا فى داخلى .. وأحمله .. ويحملنى .. ولا أعرف أين الكفن وأينا المشيعون .. وأينا الفاقد وأينا الفقيد ..

وضاق الناس بحالى . وأخفيته عن العيون . وضاق الناس بما أكتب عن أمى .

وقال الأبناء : ليس صغيراً .

وقالت الأمهات : ياليت أبناءنا كانوا مثلك أو واحداً على عشرة منك – حتى على الموت لا أخلو من الحسد .

– ولكن ما فائدة ما أقول ؟

– لا شئ !

– من الذى يسمعى ؟

– لا أحد !

ما نهاية ما أقول وما أقرأ ؟ ومن الذى يستريح ؟ أنا أو هى أو هو ؟

– إتنى من المؤكد أستريح .

– ولكن إلى ماذا ؟

– إلى أنني أقول شيئاً يريحني وأؤمن ، أو أصبحت أؤمن بأنه يريح روحها .

– من قال ذلك ؟

– لا أعرف . ولكن هذا هو شعوري . إنني أراها . أسمعها . أحلم بها . وأحلامي صادقة . فما أراه في نومي يتحقق بشكل ما . هذه حقيقة . وهي التي دفعتني وألقت بي في عالم الروح والإيمان بها وأن هناك قوى أخرى . وأن هناك قوة القوى . عاقلة حكيمة . ونحن أمامها لسنا إلا نملة نعيش على نملة إسمها الأرض في مجهول شاسع واسع . لا نعرف له حتى الآن طولاً ولا عرضاً . بل إن العالم الكبير اينشتين اليهودي يقول : إن كل ما يراه يدل على أن الكون يتسع .

ويتساءل : ولكن ما هي سعة الكون . لا أحد يعرف .. ولكن كل شيء يدل على أنه يتجه بعيداً عنا بملايين الملايين من السنين الضوئية !

ويوم أرسل أحد الأمريكان برقية يسأله فيها : هل تؤمن بالله .

فأجاب : ليس أمام أي أحد إلا ذلك . وإلا فلينظر إلى السماء وليسمع موسيقاها الرياضية . وليقل بعد ذلك من هو هذا الموسيقار المهندس العظيم الذي وراء كل شيء وكل نفس وكل عقل ؟!

واتجهت إلى دراسة سكان الكواكب الأخرى . لا بد أن يكون هناك أناس أكثر عقلاً أو أقل تطوراً . تماماً كما في هذه الأرض : بدائيون ورواد فضاء ، وسحرة وعلماء صواريخ ..

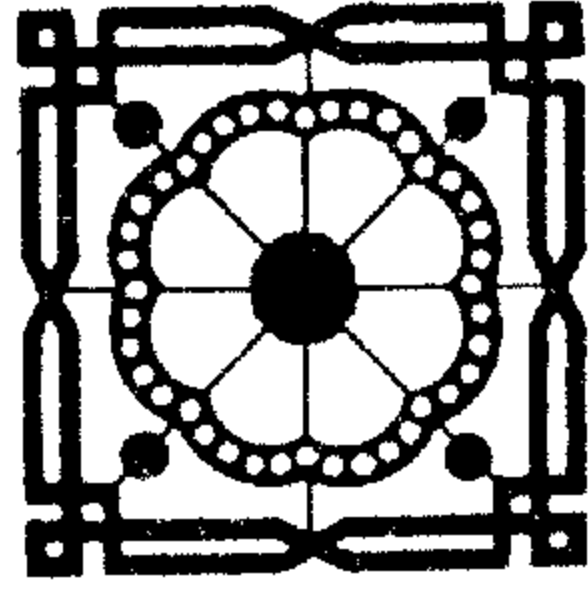
واتجهت بعد ذلك إلى دراسة ظواهر الروح والانشغال بها .. والإيمان بها .. والإيمان

باجتهادات العلماء الملحدين ، باثبات أن الروح موجودة وانها تظهر بأشكال مختلفة للناس .. وبأننى وأنتك وإننا جميعا لا شئ . وإنما مرحلة عابرة فى حياة طويلة للإنسان لا يعرف متى تنتهى ولا ما هى الحكمة منها ؟ فنحن لا نستطيع أن نعرف ذلك . الا إذا استطاع النمل أو النحل فى بيتك أن يعرف معنى ما تنشره الصحف أو تقوله الاذاعة أو تقوله أنت عن النحل .. لاهى تعرف . ولا أنت تعرف . ولكن الذى يريح العقل هو أن يهتدى إلى شئ . ولن تهتدى إلى كل شئ فلا علم عندك ولا عمر أيضا .

وان لم تجد راحتك بنفسك ، فلن يهينها لك أحد .
والعبارة الهندية تقول : أيا كان اتجاهك . أين كان موقفك . وموقعك .. وقبلتك .
فإن الله هو الذى يهديك ويستجيب لك !

آمنت بالله . !

فمن أين جاء المطر ، ومن أين جاء البرق ، ومن أين جاءت مياه الآبار والأنهار ؟ .
جاءت من مكان بعيد ، ولحظة فى الزمان بعيدة .. من أيام طفولتك .. ومن أناس سبقوك إلى الحياة ، والخوف منها والحرص عليها ، ومن أناس علموك كيف تستضى وتضى وتضاء وتهتدى وتهدى !



صورة رسعتها وعشت عليها قد غيرتها !!

ما الذى جرى لى فى العشرين عاما الماضية ؟ كثير جدا جرى لى وجرى لى .
ولكن أين اتجهت ؟ إلى كل اتجاه . . فقد كنت مثل العنكبوت له عشرون عينا ،
ومشيت وراء عيوني ، يمينا وشمالا واتجهت إلى أعلى حافى الرأس ، ونظرت إلى
أسفل على الرأس .

وأحسست كأننى أبني بيوتا منيعة فوق الأرض أو تحت الأرض . إنها حتمنى
من مخاوفى . فالإنسان صانع مخاوفه . وكل إنسان هو شيطان نفسه . . ولكن فى
نفس الوقت حرمتنى الماء والهواء والضوء .

كأننى مثل رواد الفضاء السوفيت الذين أقاموا فى خندق تحت الأرض يجربون

كيف تكون حياتهم تحت سطح القمر . فإذا فعلوا ؟ إنهم حولوا البول إلى ماء يشربونه ، وحولوا البراز إلى لحم يأكلونه — منتهى العظمة العلمية والعبقريّة التكنولوجية ، ولكن ما الذى شربوه وكيف كان طعامه ، وما الذى أكلوه وكيف استطعموه ؟ ! . .

كأننى خرجت من قمقم ودخلت فى قمقم أكبر ، وخرجت لأدخل فى قمقم أطول وأعرض . . وكل شيء حولى من الزجاج الشفاف . ليكى أرى أوضح وأنا آمن . . ولكنى عندما اقتربت من جدران القمقم تحول الزجاج إلى شيء معتم لأننى أتنفس بالقرب منه . . وبالقرب من كل جدار . . فأنا الذى صنعت الزجاج ، وأنا الذى حولته إلى حجر معتم . . فأنا الذى أظلمت أمام عيني كل طريق للمعرفة !

بل أكثر من ذلك أننى نظرت إلى كل شيء حولى . . ولكن لم أعرف الحجم الحقيقى للأشياء والناس . . والوزن الحقيقى لكل قيمة . لماذا ؟ لأننى كنت أستخدم نظارات مختلفة الألوان والزوايا . . فبعضها يجعل الدنيا واضحة وصغيرة ، وبعضها يجعلها كبيرة وباهتة . . وبعضها مثل التلسكوب يجعلها قريبة ، وبعضها مثل الميكروسكوب يجعل الصغير جدا كبيرا جدا . . ولكن ما هو الحجم الحقيقى للدنيا ؟ ما قيمتها ؟ وما ضرورتى . . وما أهمية أن يكون لى رأى ؟ وأن يكون هناك أى رأى . . ثم ما أهمية أن يبحث الإنسان عن المعنى وراء كل شيء ، وإذا عرف فما قيمة المعرفة . . وأيهما أفضل هذا الحائر البائر الدائر أو هذا التاجر الداعر الذى يتحول فى يديه كل شيء إلى سلعة لها ثمن ولها قيمة . . وهل يستطيع الباحث عن المعنى أن يكون تاجرا ، وهل يستطيع الباحث عن الثن أن يكون مفكرا أو فيلسوفا ؟ .

سئل الحكيم اليوناني ديوجين : أيهما أفضل عندك الرجل الحكيم أو الرجل الغني ؟
فقال : بل الرجل الحكيم . .

ف قيل له : وكيف تفسر وقوف الحكماء بأبواب الأغنياء ، وعدم وقوف
الأغنياء ببيوت الحكماء ؟

فقال ديوجين : لأن الحكماء يعرفون قيمة الثراء والأغنياء لا يعرفون قيمة
الحكمة !

ولكنه رأى رجل حكيم مفلس عاش عاريا ، ونام مع الكلاب . وهو سعيد
بذلك !

ودار رأسى حولي ، وكأنه « ديك الريح » يتجه إلى كل ناحية . . وليس
له أفق . ولا وجهة ولا قبلة . والذي ليس له هدف ، فكل الشوارع عنده
سواء . . وكانت كل الفلسفات والديانات عندي سواء . . فليس لي هدف ،
وليس عندي أى أمل فى شيء ! وطالت حيرتى . وزادت متاعبى . وتقلبت على
كل مخدة . وتوجعت من كل سرير . . وضقت بكل من يقرب منى . . فقد
أحسست أن الناس كلهم مثل القنفذ شائكون وأنا عريان النفس ، مجرد الفكر ،
ممزق القلب . .

و كنت أتصور أننى استرحت إلى ما اهتديت إليه . وأننى أدمنت التفكير .
ولأننى أدمنت لم أعد أميز بين فكرة وفكرة . ففقدت لذة الأشياء وانعدمت
فوارق اللون . .

وفجأة توقفت عن الأديان . لا أعرف كيف . . ربما لأننى تعبت . وربما

لأننى انتقلت إلى أديان أخرى . وتوجعت أكثر . . تماما كالذى يعتاد على الكيف أو على المخدرات ثم يوقفها . كل شىء فيه يتألم . فكل شىء فيه قد اعتاد على أن يتوكأ على شىء تحت رجليه وتحت رأسه ووراء ظهره وأمام عينيه . . فالعينان تستندان إلى منظار مريح ، وأنا أعتمد على عصا ، ورجلاى تعتمدان على بساط ينسحب من تحتهما ، فانتقل دون حركة ، لأن البساط السحري هو الذى يحملنى .. وفجأة سقط المنظار والعصا وانسحبت المخدرات وهرب البساط . . وكادت حواسى تهرب منى . .

وترأت أمامى صور قديمة وجديدة من الماضى البعيد والحاضر الأليم والمستقبل الخيف . فالإنسان لا يستطيع أن يمشى فى خط مستقيم ، ولا أن يفكر فى دروب مستقيمة . . فالذاكرة تروح وتجيء ، مثل موج البحر ومثل هبات النسيم . . ورأيت كأنى جيلفر فى بلاد الأقزام ، ربطونى بالخيوط ولم أعرف كيف أتخلص منها . . ورأيت نفسى مثل برومثيروس تأكل الصقور قلبى ، وأنا مخدر ، فأرى نفسى مأكولا منهوبا وأخاف مما أرى ، وأحمد الله أننى لا أحس بشىء . . وأخاف من هذه الفكرة . . فلا أرفع بها صوتى فيجردنى الله من نعمة بلادة الحس أو انعدام الحس . . فأصرخ مع كل ضربة منقار ومع كل قطرة دم وقطعة لحم . . ونصورت نفسى ذلك الإنسان الذى خطفه النسر فى قصص « ألف ليلة وليلة » . . ارتفع به إلى أقصى درجات العذاب . . وانحط به فوق قمة جبل . . صحيح أنه ارتفع به ، ولكن خوفه من السقوط كان أعمق . . فقد سقط على قمة . . منتهى السمو والألم !

فما الذى أقمته لنفسى ، ما الذى نسجته لنفسى حول نفسى ؟ فى العشرين عاما

الماضية أحسست أننى مثل « دودة القز » نسجت لنفسى بيتا ناعما رقيقا خانقا !
كفنا ونعشا فى غاية الأناقة ، ومت فيه . . أو كأنتى مت فيه !

ولا نهاية للصور التى رسمتها لنفسى ، أو رسمتها لغيرى . . ومن المؤكد أن
حيرتى ليس لها قرار . . وليس ضرب الأمثلة وذكر قصص التاريخ والتحرافات
إلا دليلا على أن كل شىء حاضر فى ذهنى ، وإلا أننى غائب عن كل شىء . .
فأنا سجين نفسى ، وأنا عبد لأفكارى . . وأن الحر حقيقة هو الذى يقيد أفكاره ،
ويطلق خياله . . أو هو الذى يأمر حواسه ، كأنها حاشية الملك ، فإذا هى تفعل
ما يشاء . . ولكننى أحسست دائما أننى أقلية مضطهدة . . وأن الأغلبية من الحواس
والأفكار والخاوف والشكوك هى التى أقعدتنى إلى الأرض . . وحولتنى إلى
الأرض تدوسها كل الأقدام . .

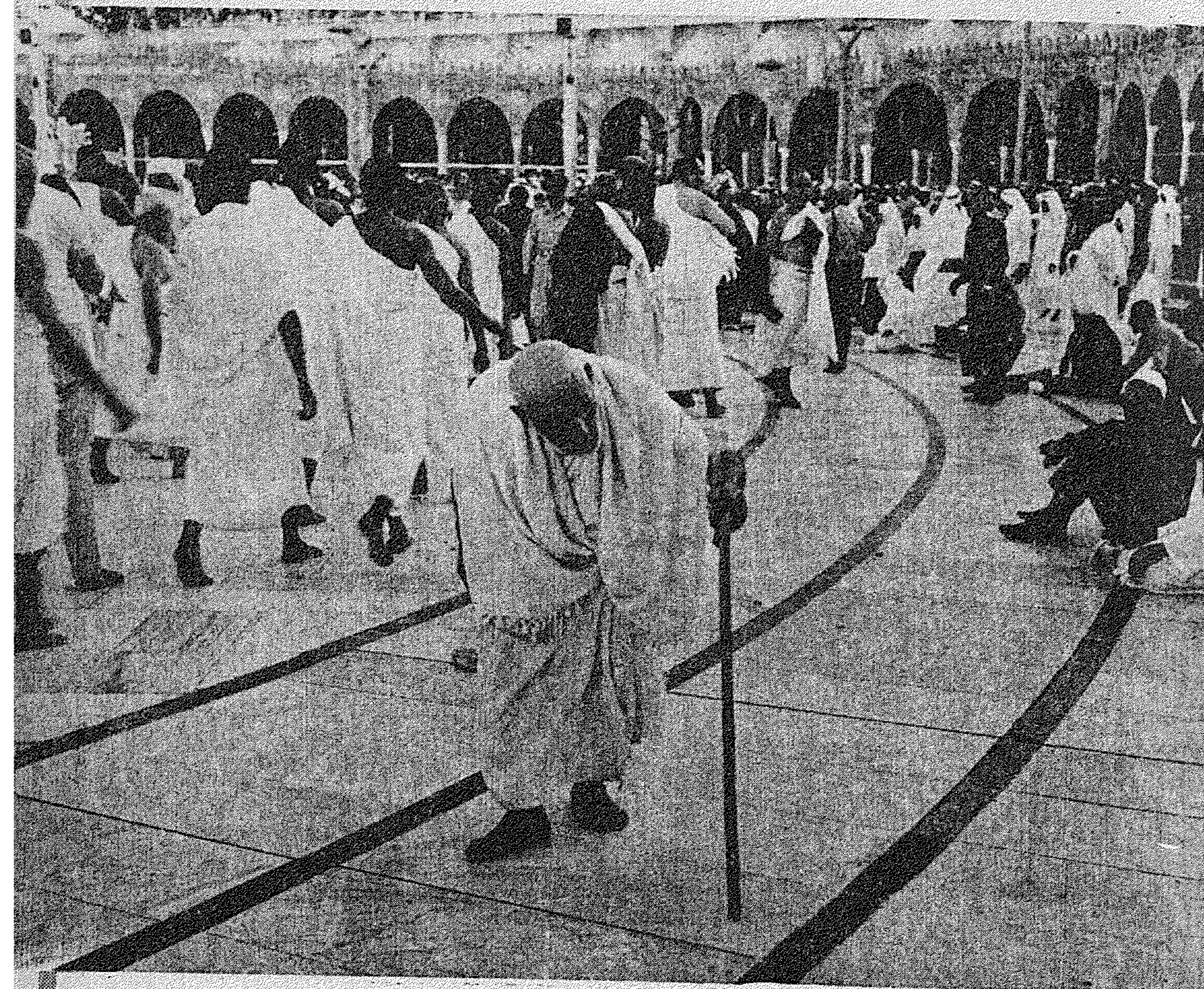
وعلى سبيل المثال تذكرت دائما قصة « أوديب » . . فقد قالت العرافة لأبيه
الملك : سوف يقتلك أحد أولادك . .

وابتعد الملك عن زوجته حتى لا يكون له أبناء . وهو قرار يذوب مع الكأس
أو النشوة . وحملت زوجته وأنجب ولدا . وفرع الأب وطلب من زوجته أن
ترميه على الجبل حتى الموت . وأخذته الخادمة وأشفقت عليه ، وعلقتة من قدميه
حتى تورمتا . ولذلك سمي أوديب أى ذو القدمين المنفوختين . وجاء رجل وأخذه
ونقله إلى بيت . إلى سيدة ليس لها أولاد . وفى يوم قال له أحد الأطفال حسدا
أو حقدا عليه ، إنه ابن غير شرعى . وغضب أوديب . وذهب إلى العرافة .

فقالت : أنت كذلك . ولا تذهب إلى بيت أهلك وإلا قتلتة وتزوجت أمك !
وذهب أوديب الشاب ولقى بعض الجنود فقاتلهم . حتى قتلهم . وكان من



حول الكعبة وفي سمائها سلام على الأرض
وفي الناس وفي السماء . . . حتى الطيور قد أمنت
من الخوف . . .



« حتى عاد كالعرجون القديم » صدق
الله العظيم . . إن هذه الشيخوخة لم تمنع رجلا
من أن ينحني على عصاه من أجل الله . .

بينهم أبوه . وولى الملك رجل آخر تزوج أم أوديب . وظهر وحش فى الطريق يقتل كل إنسان لا يجيب على سؤال : وكان السؤال من هو الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح وعلى اثنتين فى الظهيرة وعلى ثلاث عند الغروب .

وعرف أوديب حل هذا اللغز فقال له : إنه الإنسان ، يجبو على أربع وهو طفل ، ويمشى على رجلين وهو شاب ويعتمد على عصا وهو شيخ .

فانتحر الوحش لأن حقيقته قد انكشفت . (وكان الفيلسوف الألمانى شو بنهور يلبس خاتما عليه صورة هذا الوحش وقد ألقى بنفسه فى الهاوية ، لأن شو بنهور قد عرف الحقيقة) . وكافأه الملك على ذلك بأن أجلسه على العرش . وتزوج أوديب أمه ، وأنجب منها ولدين وبنيتين .

وانتشر طاعون . وقالت العرافة لن يذهب هذا الطاعون إلا إذا خرج الرجل الذى قتل الملك . واستطاع أوديب أن يعرف من هو القاتل . إنه هو نفسه . قتل أباه وتزوج أمه . . . وحزن لهذه الفاجعة . وفقاً عينيه بيديه . . . وصحبه أخته ! وانتحر . . . ويقال إن أمه أيضا انتحرت عندما عرفت الحقيقة !

فما المعنى ؟

المعنى أن أسئلة صعبة وجهت إلى الناس ، وأن واحدا استطاع أن يجيب عنها . فما الذى أفاد من هذه البراعة وهذا الذكاء : خراب الدنيا كلها ومأساته هو فى النهاية !

والمثل الشعبى المصرى يقول : آفتى معرفتى ، وراحتى ما اعرفشى . . . فالمعرفة آفة ، والجهل راحة — لقد عرفت الكثير فما أراحنى !

وأحسست كأننى موسى عليه السلام ذلك الطفل الصغير ألقته أمه فى النيل خوفا من فرعون . وذهبت أخته ترقبه من بعيد . فلما التقطته امرأة فرعون استراحت الأم إلى أنه هناك . ولكن الطفل لم يرضع أى صدر . رفض الصدور كلها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون » . .

وجاءت أمه ترضعه . .

ولكنى لست وحيدا فى النيل . لا أم ولا أخت . . ولا وعد بمرضعة جديدة . . فقد قبلت كل المراضع ، وذقت كل لبن ، وارتيمت على كل صدر ، وفقدت لذة حنان الأم ، أو المذهب الأم ، أو الدين الأم . . فقد وجدت كل شيء ، ولكننى لم أتذوق شيئا . الكل موجود ، وليس موجودا .

وصور أخرى تعذب بها رأسى فى كل اتجاه . . وكل يوم وكل ليلة ، وكل كتاب .

وفكرت فى الخلاص من متاعبى وعذابى بالموت . وقررت وأنا فى مدينة هافانا بكوبا أن ألقى بنفسى من فندق « كوبا الحرة » كل شيء جميل . ولأنه جميل ولأننى لا أتذوق الألوان والأصوات والأفكار . . فكأننى ولدت أعمى وأخرس وأصم : لا أعرف أن أقول شيئا عن كل ما حولى . . وهذه مناسبة لأن يكون موتى بقعة سوداء أو دامية فى هذا الجمال وهذه الحياة . وفى يوم طلبت يوسف السباعى . وقلت له عندى شيء هام أريد أن أقوله لك . ويوسف السباعى على عادته مرح . وقادر على أن يحول كل شيء إلى ابتسامة أو نكتة . وأمام هذه

البهجة لم أجد ما أقوله واخترعت قصة لا أساس لها . . وفكرت بعد ذلك : هل هذه فكرة حقيقية ؟ أو أنها فكرة طائشة ؟

هل انتقلت إلى نفسى عدوى الأديب همنجواى الذى انتحر والذى له بيت فى هافانا ؟ . وما الذى يقال بعد ذلك تفسيراً لما حدث ؟ لماذا هو انتحر ؟ من أى مذهب سياسى هو ؟ وما الذى ضايقه ؟ هل حاول أن يجعل موته عالمياً ، فهنا تلتقى وفود القارات الثلاث : آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ؟ ولكن من يعرفنى من هؤلاء ؟ ولا واحد من الألف مليون من الصفر والسود والبيض ؟ لا شيء ! لا معنى !

ولكن مادمت أسأل . عما سوف يقوله الناس ، فأنا إذن لا أزال أهتم بالناس وما يقوله الناس . إذن ليست هذه النية صادقة وليس المعنى واضحاً فى رأسى . . وفى إحدى الليالى تحدثت إلى د. رفعت المحجوب ، وكان شريكى فى غرقى ، وكان زميلى فى المنصورة الثانوية ، وفزنا بجائزة الدولة فى عام واحد : ما رأيك فى الانتحار ؟

فأجاب بمنتهى الهدوء وكأنه يتحدث عن بديهية رياضية وقال : جنون !
— ولماذا ؟

— هرب من الحياة .

— ولماذا لا يهرب الناس من الحياة مادامت لا تريحهم ؟

— يحاولون . يكافحون . يقفون على حقيقة ثابتة . . أكثر هؤلاء المنتحرين جهلة .

— لا أظن أنني جاهل ؟

— وما دخلك أنت ؟

— صحيح ما دخلى أنا ؟ !

وأكملت حديثي مع نفسي : وما معنى هذه الحياة ؟ .

— لا معنى لها . فنحن الذين نجعل لها المعنى . ونجعل لأنفسنا القيمة . فننؤكد أن هذه الحياة كانت وسوف تكون من غيرى . . فوجودى لا ضرورة له .
لست ضروريا لأى أحد . .

— إذن لماذا استراح أناس آخرون إلى حياتهم ؟

— أحسدهم على ذلك . ولكن لا أعرف كيف . إن كل إنسان قد اختار ما يريحه . أو استراح إلى الذى اختاره . وأبعد رأسه عن هذه السخافات الفلسفية والدينية والتاريخية التى حشد بها رأسى حتى انفجر . . إن الذى يتخيل فى كل ليلة أن فى غرفته عفاريت . . وأن فى فراشه حشرات . . وأنه لن ينام حتى الصباح . . وأنه لو أغنى ولو لحظة فسوف يموت . . إن مثل الإنسان « المسكون » لن ينام . !
وقد نام أناس لأنهم لم يفكروا فى شىء مما أقول ! فعلى الإنسان أن ينتقى شيئا لرأسه ، وشيئا لعقله وقلبه ، وأن يتمدد وينام . . ويصحو أصح لينام أهدأ ، ومن نومه الهادىء وصحوه الناعم ، تكون حياته اللينة .

وأقول لنفسى :

— إذن لا توجد هناك هموم فكرية ؟

— مثل ماذا ؟

— أين الله ؟

— لا أحد يعرف .

— لا أحد ؟

— نعم لا أحد .

— وما هو الله ؟ وما حكمة هذه الحياة ؟ التافهة وما معنى وجودنا الأكثر

تفاهة . .

— أما أن حياتنا تافهة . فهذا صحيح . فلا أحد يعرف معنى هذه الحياة وما حكمتها . ونحن لانعرف الله . لأن الله أكبر من أن يعرفه الإنسان . فالعقل صغير . والعمر قصير . والعالم لا حدود له . فنحن بعقولنا الصغيرة ، وبوسائلنا المتواضعة ، نريد أن نعرف الحقيقة المطلقة الواسعة الشاسعة ، التي لا أول لها ولا آخر . . كيف ؟ إننى دائماً أقول : كما أن الإنسان لا يستطيع أن يقيس السماء بالشبر ، فإن العقل الذى فى حجم الشبر ، لا يستطيع أن يحيط بالله ليعرفه ويفهمه . . لا عندنا عقل ، ولا عندنا علم ، ولا عندنا عمر . ولكن البشرية فى ملايين السنين من عمرها سوف تعرف شيئاً ما . . فنحن لسنا إلا لحظات فى عمر العقل أو محاولة الفهم عبر ملايين الملايين من الناس ، والملايين الملايين من السنين . وفى كل الحالات سوف تصدق علينا الآية الكريمة التى تقول : «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» .

— بالأمس واليوم وغدا وبعد غد بملايين الملايين من السنين .

مثلاً : ما الذى تستطيع أن تقوله لطفل صغير عن نظرية النسبية . . ما الذى تستطيع أن تقوله لوضيع عن أشعة ليزر . . كيف تقولها وكيف تقنعه . . أنت

لا تستطيع وهو عاجز عن الفهم . . ونحن فى طفولة العقل الإنسانى . .

وعندما كنت أدرس الفلسفة فى الجامعة كنت أغبط تلامذتى وأحسدهم :
انهم يصدقون ما أقول . . أى يصدقون ما لا أعرف أنا كيف أصدقه . استراحوا
إلى ولم أسترح إليهم . فهم أحسن حالا . . اننى مثل شجرة تلسعها الشمس ، وفى
ظل هذه الشجرة ينام ويلعب أطفال صغار !

وكتبت وصية فقد قررت أن أنتحر مرة أخرى . واستأذنت زوجتى فى
شئ واحد : أن تسمح لى أن أموت تحت كتبى . وأن تكرمنى باحراقها معى . .
فهذه الكتب لم تنفعنى . وعندما أحترق أنا وكتبى أكون أنا الحريق والمحترق . .
تكون كتبى هى الوقود ويكون شحمى هو الزيت . وأصبح كما قال الشاعر
كامل الشناوى :

حطمتنى مثلما حطمتها

فأنا منها وهى منى : شظايا !

وكتبت قصة طويلة اسمها « عريس فاطمة » والقصة ليست مريحة . وإنما
هى أنا . وإذا كان الأديب الفرنسى يقول عن « مدام بوفارى » بطله قصته :
أن مدام بوفارى هى أنا - فأنا أستطيع أن أقول عن فاطمة إنها أنا أيضا . . أو
فاطمة التى لا تجد لها عريسا ، أو أنا العريس المجهول الذى انسدت الطرق
فى وجهى لكى أصل إلى فاطمة هذه . ولكن من الذى سد الطرق ؟ أنا . من
الذى جعل حياة فاطمة وبيت فاطمة جهنم ، لا حياة فيها ؟ أنا أيضا . إنها حيرتى .
إنها دوختى . . أنا الذى ابتدعتها . وأنا الذى خلقت مشاكلها : ومن بين مشاكلها
جمالها وشبابها ورقتها ، وخشونة الحياة حولها ، وصعوبة الأب والأم والأخوة

والمجتمع كله . فما الحل ؟ لم أجد حلا . وتوقفت بالقصة ، أو توقفت في القصة قبل النهاية . وظلت دون تكملة أربع سنوات ، وتذكرت أن قصتي مثل « بيت الأحلام » في مدينة رابالو على الريفيرا الإيطالية . .

فالييت لم يكمله الذي بناه . وقال الناس إنه كالأحلام جميلة ، ولكنها ناقصة إلى أن تتحقق . . فما الحل ؟ بعد أربع سنوات وجدت الحل ، جاءت البطلة في نهاية القصة تحاكمي . وتسألني : أنت الذي جعلت كل شيء صعبا . بل مستحيلا . ولذلك لم تفلح في أن تخرجني . إن المؤلفين عادة يخلقون الحل ، قبل أن يعقدوا المشكلة ، وينشئون الطرق والكبارى ، قبل أن يفكروا في طريقة الهرب . . ولكنك لم تفكر في شيء من ذلك . . هل أنت هكذا . .

وقلت : نعم هكذا .

— وما مشكلتك .

— كثيرة جدا مشاكلي . .

— وإذا كنت غير قادر على أن تحل مشاكلك فكيف تحاول أن تحل مشاكل الآخرين . . إنك مثل الرجل الذي تحدث عنه الفيلسوف سقراط الذي حاول أن يعد حبات القمح في جيبيه الأيمن ، فلم يستطع . واهتدى إلى حل لكى يعدها ، فلأ جيبيه الآخر بالقمح أيضا ، ليحسب ما في الجيبين معا . أنت أيضا عاجز عن حل مشاكلك . . فخلقت مشاكلي لتحل المشاكل معا . ولكنك لا تستطيع . .

وانتهت القصة بمحاكمة البطلة ، وحلها لمشاكلي . وبقيت مشاكلها هي بلا حل !

ولعلك تلاحظ أنني أمشي في عدة طرق في الماضي والحاضر . . لأن العقل الإنساني كذلك : قديمه واضح ، وجديده غامض ، ومستقبله لامع . . والعقل

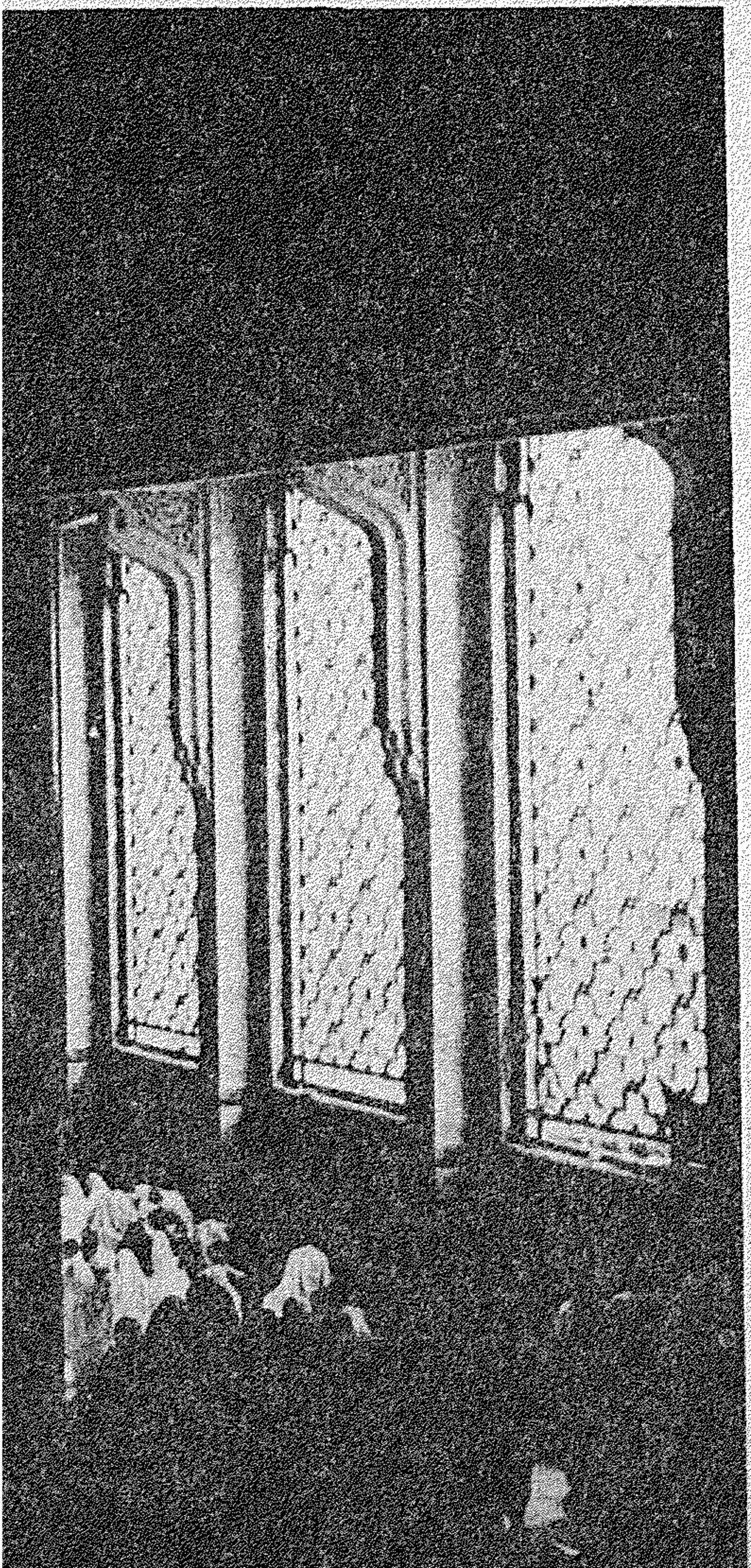
يحاول أن يفهم كل ما هو واضح عنده . . فقط كل ما يسقط عليه النور . .
وهذا يذكرني بنكتة ألمانية فلسفية : إن رجلاً ظهر على المسرح وراح يبحث
عن مفتاح ضاع منه ليلاً . فاقرب منه رجل الشرطة ليسأله : ماذا ضاع منك ؟
قال : مفتاح . .

سأله الشرطي : وأين ضاع منك ؟ فقال الرجل : في أول الشارع ؟ قال الشرطي :
في أول الشارع وتبحث عنه هنا في آخر الشارع ؟ فأجاب الرجل : نعم . .
لأن هذه هي المنطقة الوحيدة التي بها نور !

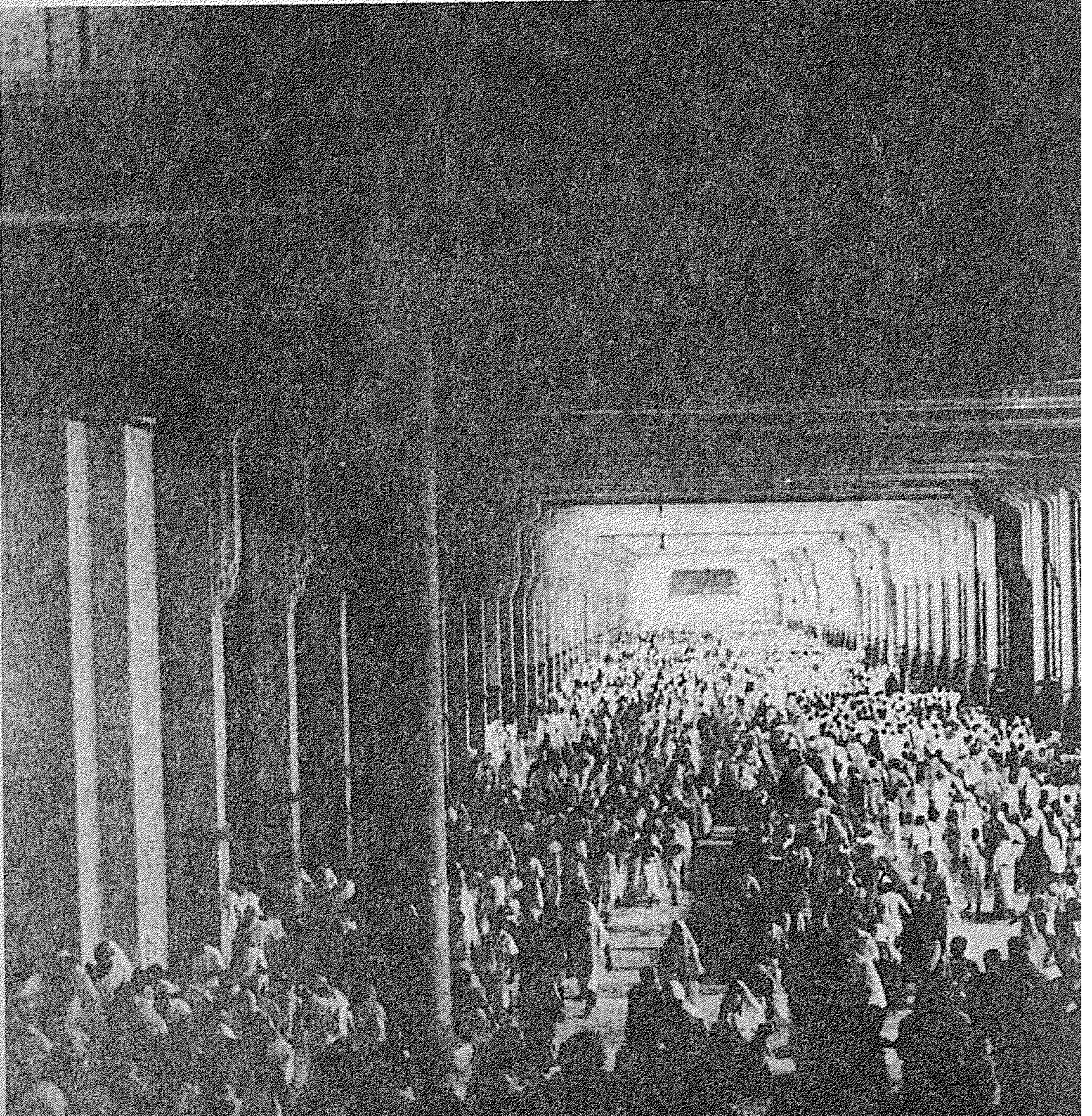
وأحسست أني مواطن عالمي . . أو على الأصح إنسان ليس له وطن . وتمنيت
أن أكون لاجئاً دينياً - إلى أي دين . أن أتوطن . . أن أطلب الجنسية من أي معبد .
أن أجد الراحة من أي موقع . . فأنا لم أختَر ديني ، ولا أحد اختار دينه ، وإنما
وجدتني على ديني ، ولن أستطيع ، لا اليوم ولا غداً ، أن أدرس كل الأديان
لأختار واحداً منها وقليلون في الدنيا هم الذين تحولوا عن دينهم إلى ديانات أخرى ،
أكثرهم جواسيس على الأديان . . وأقلهم طيبون ؟

ولكن كيف أقطع ديني من نفسي ، أو كيف أنفي نفسي عن ديني . .
كيف أقطع من نفسي ما هو جوهر نفسي ؟ لا أعرف كيف . ولكني أتصور
ما يحدث للثعالب في المناطق الجليدية عندما تقع في المصيدة ، فانها تمسك بأسنانها
إحدى أرجلها ، ولا تزال تقطعها وتبكي حتى تهرب بثلاث أرجل بعد أن
تركت واحدة هناك - منتهى الألم والحرص على الحياة والتضحية من أجل
الاستمرار .

ولا تزال الحياة أقوى من الألم . . ولكن المشكلة أن الذي أريد أن أقطعه



قال تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر
الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه
أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيراً فإن الله
شاكراً عليم » - وهذا هو السعي بين الصفا والمروة
سبعة أشواط ، إحياء لقصة العذاب لهاجر
وابنها . . حتى يوم الدين . .



بأنياى العقلية والوجدانية ، ليس يدا ولا رجلا ، بل أكبر من ذلك وأخطر من ذلك !

ولا أجد كلمة واحدة تعبر عن تعبى . . لا أعرف إن كان الذى أحسسته اسمه : التعب . . أو الإرهاق . . أو الانهدام . . الضياع . . الشتات . . التبدد . . التفكك أو التلاشى . . لا أجد الكلمة المناسبة . .

وصرفت نفسى عن الفلسفة ، وارتيمت على علوم الحياة والنبات والفلك . . وعلى دراسات الجنس والسلوك الإنسانى . . ودراسة ما وراء الحياة الإنسانية ، وأشكال أخرى من الحياة الروحية - هربا مما أنا فيه . .

ولا أقول أننى اهدت إلى شىء ، فأنا يائس من الاهتداء إلى شىء ، وأصبحت أبحث عن نفسى فى الناس والكتب ، فلم أكن أستريح إلا لأناس مثلى ، فكأننى أهرب من نفسى إلى عشرات الصور من نفسى . . وبذلك لا أخرج عن نفسى . . وإنما أجلس إلى نفسى ، وأمل ما أقول وما أسمع . .

وفى العشر السنوات الأخيرة حاولت كل هذا واسترحت إليه . استرحت إلى الهرب إلى شىء ممتع لى وللقارئ . وأدركت أننى أقوم بشىء للآخرين ، ولكن لا أحقق شيئا لنفسى . لا نعمت ولا استرحت ولا اخترت . ولا بددت ظلاما ولا أوهاما . .

ودارت بينى وبين كثيرين مناقشات . ومللت أسلحتى فى النقاش ومن التلاعب بالأفكار ، ووجدتني أتحوّل من أحد حيوانات السيرك ، إلى حيوان يمشى على الأرض . . تحوّل من حمامة تطير ، إلى دجاجة على الأرض . . واكتشفت

أن بيتي مصنوع من أوراق الكوتشينة : أرقام وصور . . ولكنه ليس بيتا يريح ، يصلح لأن يحميني ويقينني ويضفي الأمان على نفسي ، وعلى أياي . .

وكانت زوجتي أبسط إيمانا وأعمق إحساسا بكل الحقائق المعقدة التي عجزت عن الإيمان بها . وكان القليل من المعرفة الدينية يريحها . . فهي اختارت الإيمان ، لأنها اختارت الدين . . أو اختارت الدين وأكملته بالإيمان به . . هل هذا ممكن ؟ ممكن جدا عند كثيرين ! هل هذا يريح ؟ نعم عند كثيرين . فإذا أفدت لشيء ؟ ماذا أرحت ؟ لا نفسي ولا أحدا . .

ولا أعرف حقيقة من أين أتاها هذا الصفاء الروحي والشفافية الدينية ؟ أنها تعتمد على وجدانها . على ما تحسه مباشرة . على صلتها بالله ، ووجوده الدائم معها ولها . كيف ؟ لا أعرف . ولكنها مؤمنة بذلك ، مستريحة إلى ذلك . وطالت مناقشاتي وحيرتي . .

وفجأة ، كان كل ما في نفسي وعقلي قد تعب . أو قد أضيء فجأة . . ورأيت ما لم أر . وسمعت ما لم أسمع . . شيء رطب مضيء مريح منعش في داخلي . انفتح شيء . . أطل شيء . . امتلأت بشيء . . تسرب من داخلي شيء . لا أعرف ما هذا الشيء ولا أعرف كيف أسميه . . ولكنه هناك . . أو هنا . . وعدت أقرأ القرآن ، وكثيرا ما قرأت . وعدت أقرأ الحديث . . وسرا ، وكأني أنستر على جريمة ، قرأت كتاب « عبقرية محمد » للعقاد و « محمد » للدكتور حسين هيكل و « محمد » لتوفيق الحكيم و « على هامش السيرة » لطفه حسين . . و « سيرة ابن هشام » وما كتبه المستشرقون . . ولا أقول إن هذه القراءة كانت عملا واعيا وإنما وجدت نفسي مأخوذا مسحوبا منجذبا أو مجذوبا . .

وفهمت ما لم أكن أفهم . . وعرفت ما لم أكن أعرف . . واكتشفت أنني أجهل الكثير جدا . . واهتديت إلى الإسلام أبسط الأديان وأكثرها تجريدا وأعماقها فهما للإنسان والعلاقات الإنسانية ، وأن تشريعه شامل . . وأن كل شيء فيه لم يقع له تحريف . . كل شيء باق منذ ١٤ قرنا . . ولم أشأ أن أقول هذا لأحد ، ولكن ماذا لو قلت ؟ لم أجد إجابة عن هذا السؤال ، هل إذا وجدت إجابة عن السؤال هل أكتب ذلك ؟ نعم وما الذي يمنعني . . إنني كتبت عشرات السنين ومشى ورأى مئات الألوف من الشبان واتجهت بهم إلى كل وجهة إلا الدين . . فلم يكن الدين همي . . فقد كنت مشغولا بكل الأديان . . أو بالأخلاقيات الإنسانية العامة في كل العصور . . ومن العدل إذا فهمت أن أقول . وإذا اهتديت أن أهدي . . وإذا آمنت أن أدعو للإيمان ، كما دعوت إلى أشياء أخرى كثيرة ، وفي حرارة الشباب ومنطق الرجولة وتخصص الفيلسوف . .

وجاءت فكرة أداء العمرة . ومن غير تفكير وافقت . وبعد أن وافقت رحت أفكر ، كيف أفعل ذلك ؟ ثم ماذا بعد ؟ وماذا يقال ؟ ومن الذي يقول ؟ وماذا يخفى أو يخرجني في ذلك ؟

نعم هناك ما يخرجني . فأنا لست من رجال الدين ، ولا كان من الممكن أن أكون ذلك . . وبالدراسة لست من رجال الدين ولن أستطيع لأن الذي أعلمه قليل ، والذي أفهمه أقل من القليل . وعمرى لا يتسع لشيء كثير من الدراسة الدينية المتأنية . . أما الذي يخرجني فهو أن أخرج عن الصنف الذي سرت فيه . وأن أقفز من برواز الصورة التي وضعت نفسي فيه . . وهذه الصورة من صنعى . . وعرفنى الناس بها . . وإذا ظلت حريصا على أن أبدو مطابقا لصورتي ، فأنا إذن تمجرت على وضع . تجمدت على صورة . وأصبحت صورتي أقوى

منى — هى الصنم وأنا عاشقها . صنعتها وعبدتها . ألت وثنيا . . أعبد نفسى . .
من المؤكد أننى لست كذلك . . ولكن فقط هى الأصل وأنا الصورة . . أو
هى الصورة وأنا « العفريتة » . .

ولكن ماذا لو حصل ماذا أخاف أن يحصل ؟ لا أدرى .
وكان لابد أن أضع فوطتين واحدة فوق والثانية تحت وفوقهما حزام من
الجلد . وكان امتحانا عسيرا . واجهت الناس فى البيت . . وتفاديت أن أنظر
إلى عيونهم . فأنا أكثر دهشة منهم . وخفت من البرد . . فأنا شبه عريان واضع
رجلى فى — شبشب من الجلد اسمه زنوبة — يلبسها الفقراء فى مصر ، ويلبسها
كل الناس إذا ذهبوا إلى الأرض المقدسة . . يطوفون بغيرها حول الكعبة ،
ويسعون بها بين الصفا والمروة سبعة أشواط .

وتأخرت الطائرة عشر ساعات وعدت إلى البيت . وكان رمضان ، وتحيرت
هل أخلع ملابسى . أنا أعرف أن هذا حرام . هل أستطيع أن أضع روبا فوق
ملابس الإحرام . لا أعرف . سألت الصديق عثمان العبد ، فقال ما أعرفه .
وحاولت أن أجد الشيخ الباقورى فقيل لى إنه يتناول إفطاره خارج البيت .
وسألت عن الصديق أحمد فراج ، وكان يفطر فى غير بيته ، ولكن هذا العام
رأيت الشيخ أحمد طنطاوى فى التلفزيون السعودى يقول : ممكن أن تضع الروب
فالدين يسر !

وسألت الدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف ، فسألنى : من أنت ؟
قلت : مواطن من مصر ، فأجاب : ممكن جدا أن تضع البالطو أيضا إذا كانت
هناك ضرورة لذلك !

وعدت إلى المطار ، ولاحظت أنني أحاول أن ألبس ملابسى ، ولم يكن لذلك أى داع - إنما أنا أريد أن أصرف العيون عني . أو أحاول أن أقول للناس إننى غير راض عن الذى أعمله ، أو أنني مرغم صحيا على ذلك . . ووجدتني أغطى رأسى وأحبب الفوطة حتى عيني . وكان سلوكى هذا نوعا من التخنق . . نوعا من إنقاذ صورتي التى عرفني بها الناس - وكلها محاولات صغيرة تؤكد أنني أفلص وأنى أقل إيمانا .

وفى الطائرة ومع الناس ومع أصوات الملبين أحسست أنني فى مسجد فى السماء . وأن أصوات الناس وهم يقولون : ليك اللهم ليك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك ليك . .

شئ من دفء ثم حرارة ثم كهربية . ثم ارتعاشة ثم زلزلة ، ولم أشعر بصوت المحركات ولا بالوقت . . وفجأة نزلت الطائرة فى مطار جدة عند الفجر . . ولم أسأل نفسى ولماذا هذا اللبس بالذات ، أو لماذا عدم اللبس . ووجدت أنه سؤال لا معنى له . . نحن لا نسأل أنفسنا لماذا نرتدى البيجاما فى البيت ، والبنطلون خارج البيت والكرافطة فى الرسميات والمايوه فى الصيف ، ونتعري أمام الطبيب دون مناقشة . . فهذه الملابس لها معان كثيرة . . فنحن نتجرد من كل شئ . . لكن أمام الله عراة . . مجردين من الملابس ومن الشهوات ومن المخاوف أيضا . . وأن تتساوى جميعا ، من يجد الثوب ومن لا يجده . . وفى ذلك طاعة وامثال .

وفى سيارة انتقلت إلى مكة وفيها أول بيت وضع للناس : الكعبة . والكعبة مركز الإسلام والحجر الأسود أقيمت عليه الكعبة . . والمسجد الحرام أسواره

عالية . . كأنه يفصل دينا عن دين . وبشرا عن ملائكة . . وكأنه حائط صهي ،
أو حجر صهي . . فالداخل مريض والخارج سليم . . الداخل ثقيل الذنوب ،
والخارج بلا ذنوب ، فالله غفور رحيم . . غفور لخطايانا ، وهو لذلك رحيم
بنا - المعنى أمل وراحة ومثوبة على هذه الرحلة لم نتعب فيها لا ذهابا ولا إيابا . .
ولأننا فقط تعب الناس في الوقوف والانتظار . أى تعب الناس من الناس . .
وتعبت أيضا في محاولاتي التنكيرية حتى لا أكون كما عرفني الناس . ولم أعد
يهمني ذلك ، بعد ذلك . . فهذه صورتي . والذي يتغير هو البرواز فقط . .
وكما ينبت النرجس من البصل ، وكما تنبت الفاكهة من الطين ، خرجت صورة
أخرى لشخص آخر . خرجت صورة أخرى لنفس الشخص . . وكما تحدث
المعجزات المسيحية فتسيل لوحات القديسين زيتا أو دما ، كذلك بدأت تنبض
صورتي بالحياة ، بالحياة الأخرى ! . . ولماذا لا ؟

وتقدم منا طفل صغير . وقال : هل أطوف بكم وأسعى ؟ قلت . نعم . .
إنه طفل ولكنه يعرف ما سوف يقول . إننا نصلي وهو يعمل ، وكان الطفل
يطوف بنا ويرفع صوته بأدعية مكسرة الحروف وملبثة بالأخطاء النحوية انه
صغير . ولم أحاول أن أصحح ما يقوله الطفل وأنا أردد وراءه . . . فالقواعد
النحوية لا تهم الآن . . القواعد النحوية مثل البروتوكولات ومثل أصول الجلوس
والوقوف والأكل والشراب والتحية والبروتوكولات لا تهم . . وأعطيت عقلي
أجازة . . وأطلقت سراح قواعد النحو والصرف . . ورحت أردد وراءه ما يقوله . .
وفي الشوط السابع حول الكعبة كان يقول : اللهم إني أسألك إيمانا كاملا ،
ويقينا صادقا ، ورزقا واسعا ، وقلبا خاشعا ، ولسانا ذاakra ، وحللا طيبا ،

وتوبة نصوحا ، توبة قبل الموت ، وراحة بعد الموت . . رب زدني علما ،
وألحقني بالصالحين » .

وعندما نزلنا إلى بئر زمزم . . نسينا وشربنا قبل أذان الإفطار . ولكن ولا ذنب
لنا ، فقد كان ذلك سهوا .

وكان الطفل ونحن وراءه نقول : اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا ،
وشفاء من كل داء وسقم ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

واتجهت مع الناس إلى حيث السعى بين الصفا والمروة ، كما كانت تفعل
هاجر زوجة إبراهيم عليه السلام بحثا عن الماء . . ويبدأ السعى عادة بهذه الآية
الكريمة :

« إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه
أن يطوف بهما ، ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » .

وخرجنا من المسجد الحرام إلى الشارع . . إلى الدنيا . . انتهى كل شيء . .
انتهى ما جئنا من أجله . . وما بعد ذلك راحة وراحة ، وقبل أن نبحث عن فندق ..
خلعنا ملابسنا في الشارع ، وارتدينا الجلباب . أما النوم فلا مكان لأحد ،
وأخيرا عثرنا على بيت لم يتم بناؤه . واشترى صاحب البيت أو مديره مراتب
من الكاوتش . . ونمنا على الأرض . . واستأذنا في الليل إن كان يضايقنا أن
ينام آخرون أمام الغرف . وأن ينام رجل طاعن في السن ، في التواليت وفي
البانيو بالذات ، ولم يعترض أحد على نوم الرجل الشيخ ، وإنما أشفقنا عليه . .
ووقفت مع عثمان العبد أمام هذا البيت ، الذي أصبح فندقا الآن ، تناقش
في الطريقة التي نذهب بها إلى البنك - ولم نجد معنا فكة . فرعلينا رجل وأعطانا

في الطريق إلى مبي . . يتجه الحجاج يسوقون
الهدى . . ويشعر الحجاج أن الشعائر قد
انتهت وأن الحج سوف يكون مبروراً بإذن الله..



كل واحد رايالا . وشكرنا له هذه المروءة . . وبعد لحظات اكتشفت أن هذا الرجل شحاذ . .

وخجلت من ذلك ، وحاولنا أن نعطيه مما معنا ، ولكن لا توجد فكة . . ولكن لا بد أن حالتنا قد هزت قلب الشحاذ ، فأعطانا هذه الحسنة . . ولم يظهر في اليوم التالى . فتصدقنا بريالات على شحاذين آخرين !

وضبطت نفسى أفكر فى هذا الذى فعلت ، ولكن ما الذى فعلت ؟ لا شيء يستحق الاهتمام ، مالم يكن هناك إيمان به وراحة قبله وبعده . . وراحة هادئة دافئة سخية . . وأظن أن هذا ما أحسست به . كأنتى كنت أمشى بين الناس باسم مستعار . والآن أصبح الناس يعرفون اسمى . . كأنتى كنت أتوارى وراء لوحة زائفة . . بعيدة عن طبيعتى ، ولكنها قريبة من قلبى . . والآن أنا الصورة ويدائى هما البرواز . . وإيمانى هو المسار الذى يمسك الصورة ويثبتها على جدران السماء وأيقنت أننى ارتويت ، لأننى شربت من بئرى ، لا من أنهار الآخرين . . وإنتى فتحت قلبى ، أوسع مما فتحت فى . .

فليست المعرفة فقط هى التى تولد الإيمان ولكن الإيمان أيضا يولد المعرفة ، فالإيمان مثل « أملاح الهيبو » التى توضع فيها الصور عند التحميص . . إن هذه الأملاح هى التى تبرز الصورة ثم تثبت ملامحها . . ومثل الصمغ الذى يمسك الأشياء . . ومثل السوائل التى تثبت الخيوط فى اللوحات . . وتثبت شكل الشعر . . وتثبت ألوان السيارة والطائرة . .

وآدم وحواء طردا من الجنة لأنهما عرفا أنهما قد ارتكبا خطيئة . . وتغطيا بورق التوت لأنهما عرفا أنهما عاريان . . ولكن لولا هذه المعرفة البسيطة والرغبة

فيها ، ما كانت هذه البشرية على الأرض . والمعرفة مؤلمة ، ولكنها ضرورة مؤلمة وحيوية . .

وفي قبائل الأشاتى بأفريقيا يقولون إن الله خلق آدم وحواء فى الجنة ، وخلق اثنين آخرين هما آدم وحواء على الأرض ، ونزل آدم وحواء من السماء إلى بلاد الأشاتى . وعاش هؤلاء الأربعة دون أن يعرفوا كيف يتناسلون . ويقال إن حية مخيفة ولكنها ليست سامة . جاءت فى أذن السيدتين وقالت لهما : لماذا لا يكون لكما أبناء .

ولم تكن السيدتان تعرفان ذلك . وجاءت الحية وطلبت إليهما أن يتواجها : رجل وامرأة وأن يتقاربا . . وسوف تبنى الأولاد بعد ذلك . .

وجاءت الأولاد . وضاعت الأمهات والآباء بالأولاد . وراحوا يلعنون الحية التى دلتهم على العذاب عن طريق اللذة . . أو على اللذة التى تؤدى إلى العذاب . . وملايين العذاب . .

ومن أعياد الأشاتى أن الرجال يقدسون الحية ، والنساء يلعنها . . ولا أظن أن هذا معقول ، فمن قال إن الرجال بلا عذاب ، وإن النساء بلا لذة . .

وآخر تطور لديانة الأشاتى أن أصبحت الحية حيوانا مقدسا . . أى اتفق الرجال والنساء على حيوان هام فهى أم المعرفة ، وأم الحياة كلها . . وأنها هى المعرفة وأنها هى الإيمان بها . .

وأن المعرفة لا تستحق اللعنة ، إلا أنها ضوء إلى الإيمان ، وأن الإيمان لا يستحق اللعنة لأنه راحة فى الضوء وفى الطريق إلى أن نعرف أنفسنا وغيرنا ، فنعرف الله والكون - على قدر ما نستطيع !

ثم كان الطريق الطويل جداً إلى المدينة قصيراً . . هكذا كان إحساسنا . .
وجاء المغرب ونزلنا نتوضأ من ماء المطر . . واتجهت إلى مكة . وصلينا .
وبسهولة تم كل شيء . بلا تفكير . . واسترحت إلى أن شيئاً يتم دون أن أقول
باستفتاء مباشر في داخلي . فيقول العقل : لا . . ويقول القلب : نعم . .
وتردد أصوات ضاحكة ساخرة . ومحاولات أخرى لإسكات كل الأصوات .
ولكن تم ذلك بلا صوت ولا حركة ولا حرج . . وانتهزت فرصة لأترحم على
والدي ، كما ربياني وتعذبا وتعذبت صغيراً . .

وفي المدينة أحسست بشيء أقوى مما أحسست به في الكعبة . . ففي مسجد
الرسول قد دفن الرسول وأبو بكر وعمر . . هؤلاء أعرفهم وأنحنى للعظمة
والعبرية والإيمان والتضحية والبساطة . . هنا شخص غير معالم الدنيا . هنا
شخص كفر به أهله ، وتبعه غيرهم . . ثم تبعوه . شخص لم يتعلم القراءة والكتابة .
ولكن الذي يقوله فلسفة . وحكمة . وفهم للنفس والعلاقات الاجتماعية والسياسة
والحكم والحرب ودعوة إلى ما هو أفضل . من أين تعلم ذلك كله . . هذا
الراعي للغنم الأمل . . ما هذه الأحاديث . ما هذه الأحكام ؟

ما هذه التفسيرات . ثم ما هذا القرآن ، كلام ليس له مثيل ولا نظير . ولا من
عنده . إنه يتعلمه أولاً بأول . . ككل الناس . لا دخل له فيما يوحى به إليه —
إنه شخصية عظيمة . تعذب ومرض ومات . وتعذب أكثر من الناس ، ومرض
ككل الناس ، ومات لأنه مادام قد ولد ، فلا بد أن يموت . إنه إنسان من رجل
وامرأة ، وكان صدمة المسلمين بركانية عندما مات . . لقد نسوا أنه سوف
يموت . . بل إن أبا بكر بكى عندما سمعه يتلو الآية الكريمة : « اليوم أكملت لكم

دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » أدرك أبو بكر
أن كل شيء قد تم وأن صاحب الرسالة قد بلغها ، وليس بعد ذلك إلا الموت .
ولم يخطر على باله أنه سيموت .

تغير الكثير في داخلي . .

وأعتقد أنني كنت مثل سفن الفضاء التي تعرضت بطايرتها لأشعة الشمس ،
فامتلأت . لقد امتلأت . بكل ما هو مريح . ومضيئ . وأنني اغتسلت من أشياء
كثيرة ، وأن رواسي قد أزيلت ، وأن هوائى الملوث قد تقي تماماً . . وأن دمي
قد نقل خارجي ، وأن دماً جديداً يجري في عروقي .. كأني ولدت . . أو تولدت
من شيء آخر . . أو من كائن آخر . . وإنني عدت طفلاً في كعبة المعرفة
الإنسانية ، وجنينا في بطن الدين . . وإنني في حاجة إلى « حبل سري » أتغذى
منه . .

ولا أعرف كم تطول هذه الطفولة ، كأني آمنت بتناسخ الأرواح . . وكان
روحاً أخرى قد حلت ببدني . . وشيئاً غريباً آخر عرفته : كأن الأجسام لا تتعب ،
ولكن الأرواح هي التي تتعب فإذا تعبت أرهفت الأجسام . كأن السائق الذي
يسوق حياتي ، كان مخموراً مسطولاً قلقاً ، وجاء سائق جديد ، يداه أكثر
استقراراً ، وقدماه أكثر اتزاناً ، والطريق أمامه أوضح ، والهدف أقرب . .

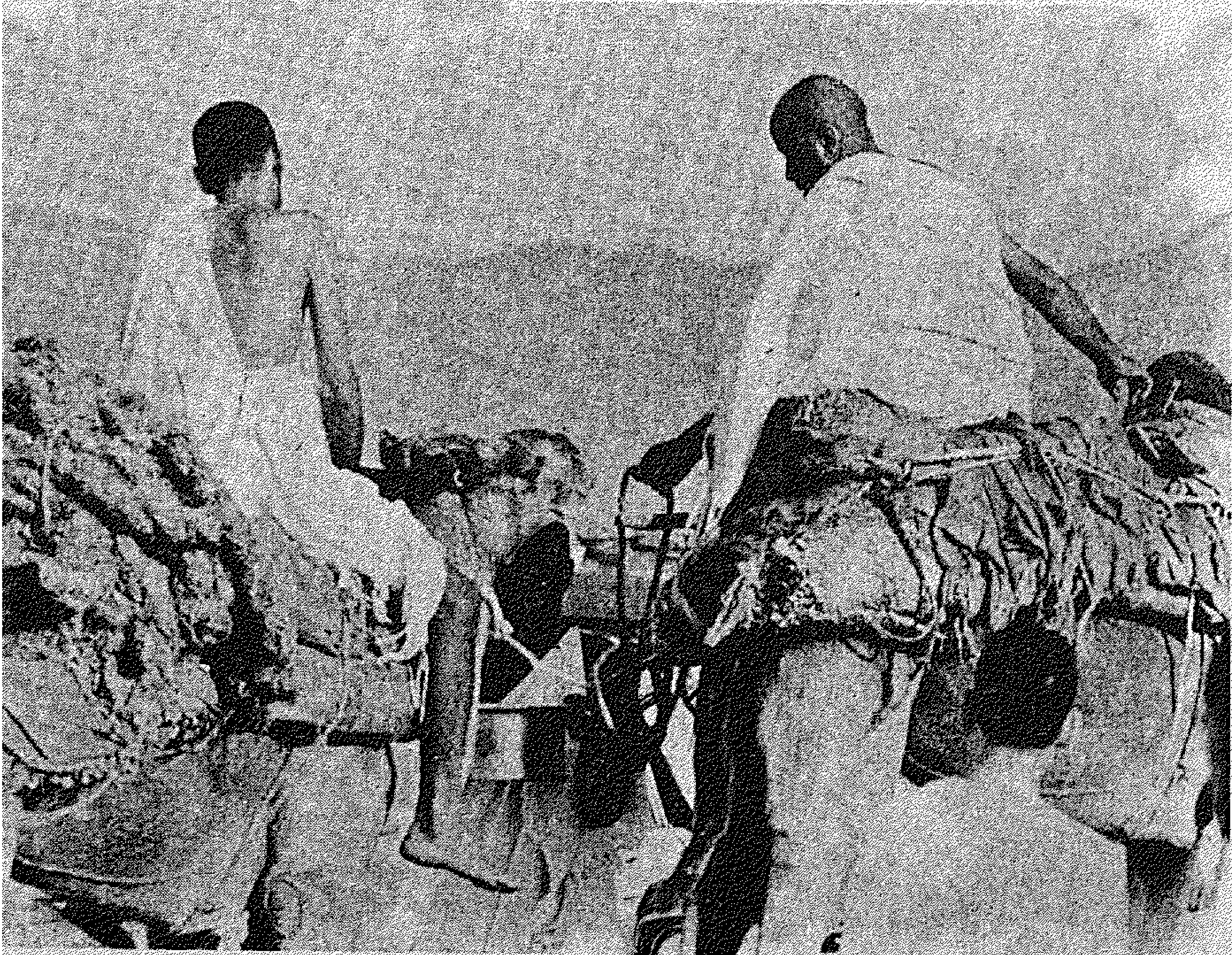
كأني لست أنا . .

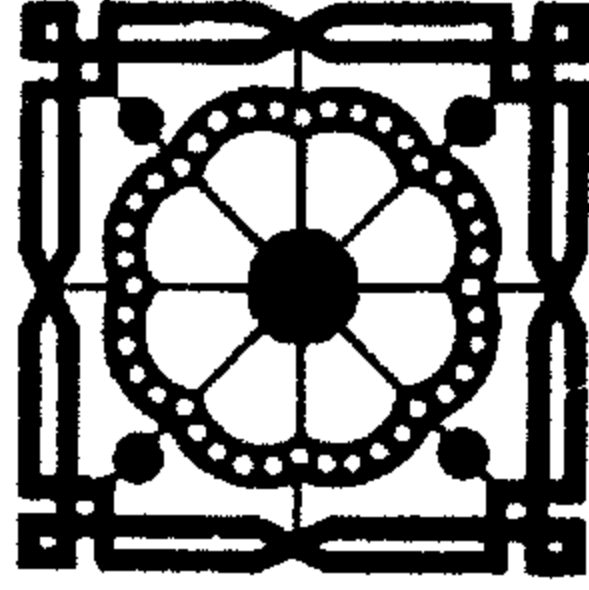
ولا أعرف كيف أعبر عما أعرف ، وعما سوف أعرف . لا أعتقد أنني

قادر على ذلك . فأنا حديث العهد بكل المعاني الدينية ، وحديث المعرفة بنفسى
الرضية .

وتذكرت الفنان الكبير جوجان عندما كتب فى « يومياته الشخصية » عندما
هرب إلى جنات المحيط الهادى . . كتب يقول : أريد أن أحب ولكنى لأستطيع ..
أريد ألا أحب ، ولكنى لا أستطيع ! ولكن من المؤكد أننى سوف أستطيع . .
أن أحب ! » .

وإلى الله يتجه الناس مشاة وراكبين ..
السيارات والإبل . . ولا فرق بين الذى
سار على قدميه . . والذى لم يحج إلى أن يفعل
ذلك.. ولكن الجميع أمام الله إنسان ضعاف عراة..





صفاء عقل وانسراح صدر ووضوح رؤية!

من هو الله؟ وأين؟ وكيف؟ ومنذ متى؟

وليس أسهل من أن أفتح أى قاموس فلسفى أو دينى وأنقل عشرات ومئات
وألف العبارات التى بقيت لنا من كل العصور للإجابة عن مثل هذا السؤال ..
فكل الأسئلة سهلة .. ولكن الصعوبة فى الاجابة .. وأصعب من أية إجابة
أن تكون مقنعا لمن يسألك ..

وقد تطور معنى الله وصورته عند الناس ، من أيام الحياة البدائية ، إلى الحياة
العصرية ، كل عصر يختار المعنى أو الصورة التى تريجه أو التى يستريح إليها ..
ومن المؤكد أن الإنسان يختار الله على صورته هو ..

مثلا - وأعود إلى دوائر المعارف الفلسفية والدينية - يقال : إله الزنوج لا بد أن تكون له شفاة غليظة ، وشعر مجعد وخدود أبنوسية ، وإله الأغريق كان مثلهم أشقر الوجه ، أصفر الشعر ، أزرق العينين !

والشاعر جيته يقول : كما يكون الإنسان يكون ربه !

الله يدخل إلى الإنسان من باب سرى !

الطريق إلى الله يبدأ من هنا : من القلب !

الله آفة في ضمير الإنسان لم يفصح عنها بعد !

الإنسان عضو حي ، والله هو الحياة !

هناك دليل أكيد على وجود الله : هذا الخير وقوانين السلوك الأخلاقي والاجتماعي التي تراءت لرجال الطيبين من الأنبياء والأولياء والقديسين !

- قالها تولستوى !

لو عرفت الله ، لعرفت أنه قادر على كل شيء !

يقول سرفانتس : عندما يشرق الله ، فإنه يشرق للجميع !

إله المتوحشين متوحش ، إله التجار تاجر ، إله الصليبيين صليبي !

حيثما يكون سلام ، يكون الله !

لم يخسر شيئا من لم يخسر الله !

كل إنسان لنفسه ، والله للجميع !

كل شيء لا يتجه إلى الله ، ضاع !

ويقول القرآن الكريم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

« قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شئ » .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا ، فله الأسماء الحسنى » .

« ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شئ فاعبدوه ، وهو على كل شئ وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .
وقال لموسى عليه السلام « لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل ، جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك ، وكن من الشاكرين » .

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » .

وآيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم ، أوضح وأعظم من كل ما قيل في وصف الله ووحدانيته وقدرته المطلقة على كل شئ .

أنت على نحو ما صورة مصغرة من الله !
في وجوه الرجال والنساء والأطفال ؛ أرى الله !
يقول باسكال : الوجود الأبدي ، يجب أن يكون أبديا ، وإلا لا معنى له !
إذا كان الله معنا ، فلأننا معه ، وإذا كان معنا ، فلا أحد ضدنا !
يقول شو : احترس من كل إنسان اتخذ له إلهًا في السماء !
من يكون خادما لله ، فقد اختار له سيّدا عظيما جدا !
الله يحب الأفعال ، ولا يحب الأقوال !
أنت تفكر والله يدبر !
أنت تستطيع والله يريد !
قال فولتير : إذا لم يوجد إله ، فمن الضروري للإنسان أن يخلق لنفسه إلهًا !
ساعة وجدناها على الشاطئ . الساعة تدور . لا بد أن أحدا صنعها . هذا الأحد
في مكان ما في زمان ما !
ليست الساعة ولكن الزهرة ، إن الساعة نظام ولكن الزهرة نظام حي . وهذه
أعقد وأصعب وأروع من ساعة وجدناها على الأرض .
الله يستطيع أن تتخيله ، لا أن تراه ، وأن تحسه لا أن تصفه — عبارة مشهورة
للقدّيس أوغسطين !
من يخاف الله ، يخافه الناس !
إذا لم تلتق بالله في أي مكان ، فلأنه لا مكان لك !



وهنا يتعري المسلمون أمام الله . . إلا من
هذه الملابس البيضاء التي توحد بين كل الناس . .
وتجعلهم ضعفاء فقراء إلى الله : وهذا أول
مبادئ المساواة في الإسلام . .

وليس في قدرة الإنسان العقلية أن يعرف الله . ولا أن يفهم قدراته . ولكي يفهم الإنسان لابد أن يحيط بالشئ . أي يكون هو أكبر من الشئ الذي يريد فهمه ، وأن يقلبه في يديه أمام عينيه . ويحدد أبعاده ووزنه ، وأن يصبح قادرا على أن يملأ به نفسه .. وأن يبعده عن نفسه بعض الوقت ليتأمله .. وهذا غير ممكن للإنسان في أي عصر وفي أي شئ - ومن أي ثقافة أو فلسفة .

مثلا : ما الذي تراه في الشارع الذي تمشي فيه كل يوم : أنت تنظر إلى الأرض معظم الوقت ، حتى لا تصطدم برصيف أو بالوعة أو طوبة أو بالناس أو السيارات - فلا ترى ما فوق رأسك ، ولا ما تحت قدميك ، ولا قدميك .. فإذا كانت لك سيارة فما الذي تراه من نافذة السيارة .. إنك ترى كل ما هو في مستوى رأسك وفي مجال بصرك .. فإذا ركبت طائرة فما الذي تراه من مدينتك من بلدك .. من الأرض .. وأنت فوق السحاب .. وما الذي يراه الطيار نفسه ؟ - وإذا ركب الطيار إحدى سفن الفضاء .. فما الذي يراه من الأرض .. وإذا هبط على القمر فما الذي يراه على القمر . وما الذي يراه في الكواكب الأخرى .. أقصى ما وصل إليه الإنسان أنه مشى بضعة كيلو مترات وجمع بعض الأحجار وعاد إلى الأرض في حفظ وصيانة عشرات الألوف من الرجال والأجهزة الالكترونية تحسب عليه أنفاسه وجوعه وعطشه وعرقه ودقات قلبه وزراير بنطلونه . فما الذي رآه .. إن الشاب العبيط جاجارين ، أول رائد فضاء ، عندما ارتفع في الكوكب الصناعي قال : ولكني لم أجد الله !

هذه عبارة ساذجة تدل على أنه إنسان بسيط سائق مركبة فضائية فقط . مشدود إلى عشرات الأربطة ، منظور من عشرات العدسات . ويرى الفضاء الهائل

أزرق أو أسود ، ويرى الأرض كرة حمراء ملفوفة بسحب بيضاء .. ولم يجد الله ، كأن الله كوكب يظهر لمن يرتفع عن الأرض مائتى كيلو متر .. وما هذه الكيلو مترات فى هذا الفضاء الذى يقاس بملايين الملايين من السنين الضوئية (السنة الضوئية الواحدة ١٨٦ ألف ميل \times ٦٠ ثانية \times ٦٠ دقيقة \times ٢٤ ساعة \times ٣٦٥ يوما = .. احسبها أنت ثم اضربها فى ملايين الملايين الملايين) .

ما الذى نراه فى عالمنا المحدود .. إننا نرى جزءا تافها من كل شئ .. وعندما استخدم الإنسان العدسات المقربة ، اتسع حوله الكون ، فالعدسات ليست إلا بديلا متطورا للعين المجردة .. وبعد ملايين السنين سوف تتطور أدوات الرؤية والحساب ، ويتطور العالم من حولنا ويتسع ونذكر ضالة الإنسان وما يعرفه الإنسان .. وما يستطيعه الإنسان .. ويصعب عليه مرة أخرى أن يعرف من هو الله .

فالإنسان لا يستطيع أن ينظر إلى الشمس بالعين المجردة . وإنما ينظر إلى قرصها فى الماء ، أو من خلال منظار أسود .. والإنسان لا يستطيع أن يرى الله ، وكيف ؟ وعندما سأل موسى ربه قال له الله : لا تستطيع . ولما أشار الله إلى الجبل .. أو لمسه . أو أشع عليه .. تحطم الجبل ، فكيف لو حدث ذلك لموسى نفسه . فالإنسان هو هذا موسى الذى يريد أن يرى لكى يصدق ، ولا بد أن يصدق ، فإذا حدث .. حدث ما لم يطقه موسى ..

ولو نظرنا إلى ما تحت الميكروسكوب إلى خلية حية .. لوجدناها ثورة حياة منظمة . والعين المجردة لا ترى الخلية . ولكن الميكروسكوب يستطيع . وسوف تتطور هذه العدسات المكبرة فتصبح الخلية متحركة حية مثل ملعب كرة القدم ولكن فى نظام محكم .. إن النجوم فى السماء ليست قطعاً من الأحجار متوازنة الحركة

والدوران حول نفسها أو حول غيرها .. ولكن الخلية الضئيلة الحية هي شئ يبعث على الرهبة ، وعلى الانحناء لآتفه مخلوقات الله - إذا صح أن نقول إن الله خلق شيئاً تافهاً !

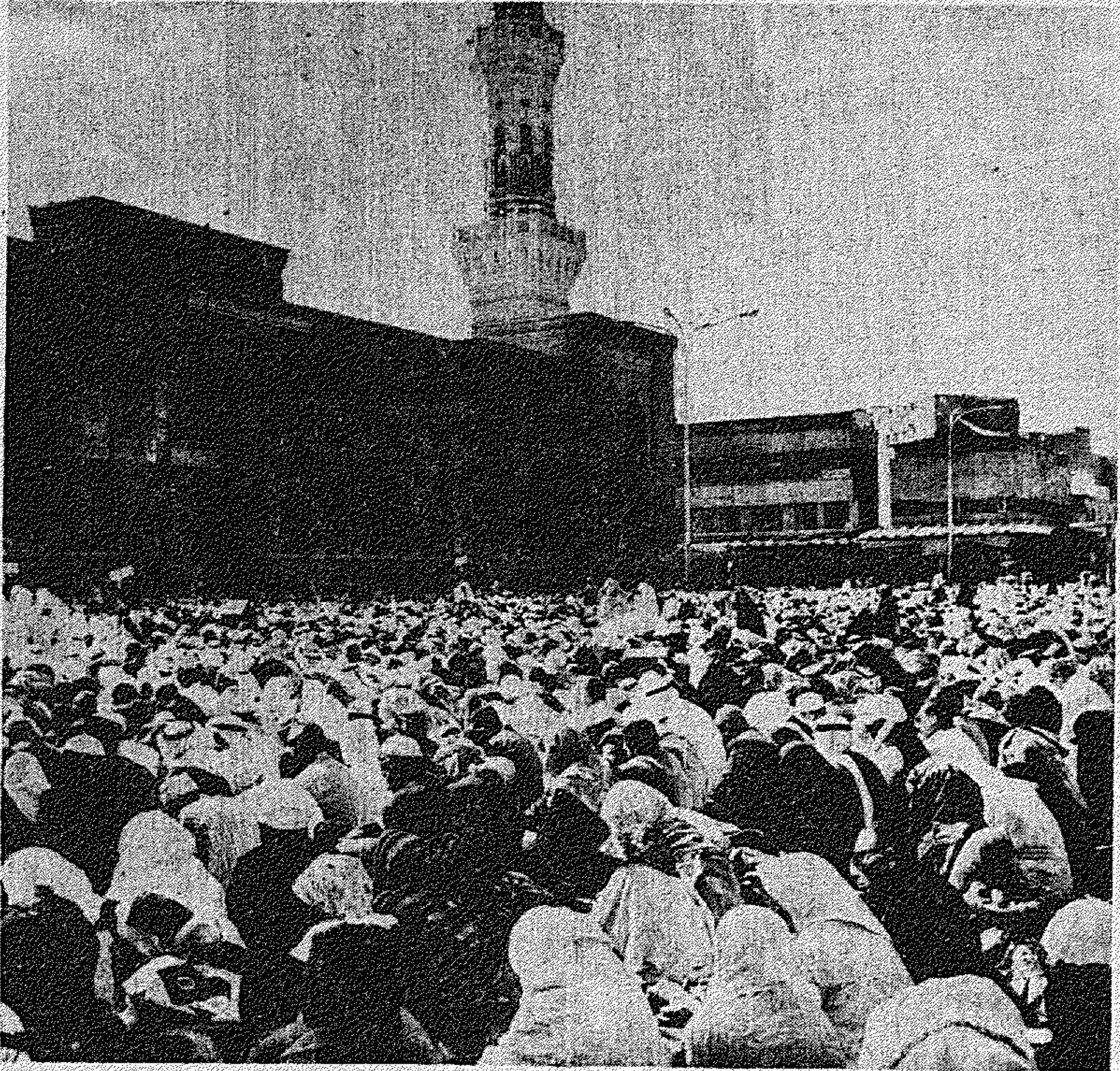
والإنسان حيوان متدين ..

أى لابد أن يجد تفسيراً لما يراه وما يفكر فيه .. وما يخاف منه ، وما يطمئن إليه . ولذلك فكل إنسان له دين . الذى يؤمن والذى يكفر . دين سماوى أو أرضى أو سياسى أو اقتصادى . وفى كل دين أناس لهم عظيم الاحترام أو القداسة .. ولهم أقوال . وهذه الأقوال هي علامات نور فى طريق الحياة المظلم بشهوات الإنسان وأحقاد الناس ومخاوف الحاكم والمحكوم . إن الحياة طوفان . وكل طوفان يكون له نوح . وتكون لنوح سفينة . ومهما كان نوح نبيا ، فإنه سيجد فى أقرب الناس له من يعصاه - نوح عليه السلام كان له ولد عصاه وغرق ..

وكل الأديان تدعو إلى الصلاة . وتدعو إلى الصوم . والزهد فى الحياة . والسلام بين الناس . وكل الأديان تدعو إلى الحج إلى الأماكن المقدسة . ولكن الإسلام ليست فيه وثنية . لا صنم ولا أحد مقدس ، إلا الله .. والإسلام أكثر الأديان تجريداً .

وفى الأديان الأخرى من يعبد صنماً ، أو يعبد شجرة أو بقرة .. أو نورا ، أو ناراً .. أو ينحنى أمام صليب أو أمام قدس الأقداس وتوراة موسى ..

ولكن من الضروري أن نعود إلى حياتنا ونحن صغار وتنساءل : كيف تعلمنا الحساب !



.. ضاق مسجد الرسول عن الذين ذهبوا
لصلاة العيد ، ولكن الميدان وكل الشوارع
المجاورة كانت صدوراً مفتوحة منسجمة
لكل الناس ..

كان يقال لنا : واحد .. أى برتقالة .

ويقال : اثنان : .. تفاحتان ..

ويقال : ثلاثة كلاب ..

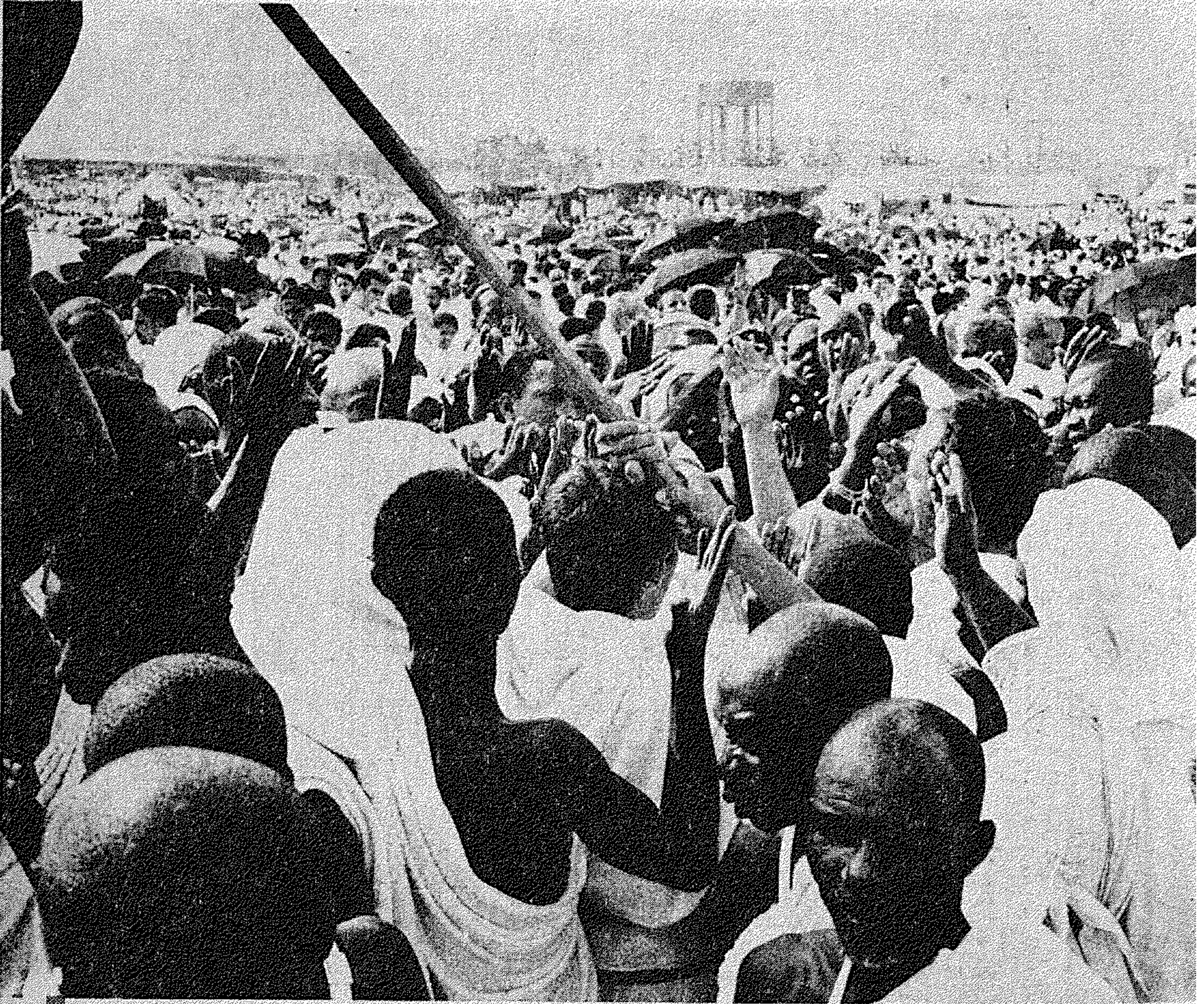
وبعد ذلك نتجى مرحلة تقول : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. من أى شئ .. من الأشياء المادية أو غير المادية ..

ولابد أن بعض الأديان قد ظهرت فى طفولة العقل البشرى ، فهى لم تصل إلى التجريد . وكان لابد أن يقال لها : إن الله شجرة أو بقرة .. أو نهر . أو جبل . أو سحاب .. أو شمس ..

والذى يقبل الصليب الذى صنعه إنسان مثلا : ليس وثنيا ، ولكن الصليب رمز إلى معنى العذاب الذى لقيه المسيح من اليهود .. والذى يعبد النار والنور والسحاب ، ينسى أن هذه جميعا رموز إلى معنى أكبر ، إن الإنسان لا يعبد الرمز . وإنما بمناسبة هذا الرمز ، يستحضر المعنى الدينى . ولكن كثيرا من الأديان قد بقيت فى مرحلتها البدائية ، دون تغيير ..

وكل ما فى الإسلام من معالم تاريخية ليست إلا رمزا إلى معنى أكبر . فالكعبة ليست مقدسة .. وإنما هى أحجار فوق أحجار . والأحجار عادية جدا . كلها قطعت من أحجار مدينة مكة . والحجر الأسود حجر عادى .. حجر أسود فى أحمر فى أصفر .. قيل من البازلت وقيل من الأحجار البركانية . وقال بعض العلماء الفرنسيين منذ أعوام ، إن هذا الحجر لا يمكن أن يكون من الأرض .. ولابد أنه سقط من كواكب أخرى بعيدة .. ولكن المسلمين يصرون على أنه حجر عادى .

قال الرسول عليه السلام : الحج عرفة
وهؤلاء هم حجاج عرفات من كل لون وطول
وعرض لا فرق بينهم أمام الله ..



والكعبة نفسها طولها ٤٠ قدما وعرضها ٣٨ قدما وارتفاعها ٥٠ قدما .. والحجر الأسود يبدأ به الطواف ، وعنده ينتهى الطواف سبع مرات حول الكعبة .. والحجر الأسود ليس قطعة واحدة .. وإنما ثلاثة أحجار كبيرة ألصقت بعضها إلى جوار بعض ، وحولها قطع صغيرة من نفس الحجر أيضا .. وكانت الكعبة قديما فى طول قامة الإنسان . وكانت تغمرها السيول . وكانت تلتف حولها الأصنام . وهدمت الكعبة وبنيت .. ونقل الحجر الأسود بعيدا عن موقعه أكثر من عشرين عاما .. وأعيد بعد ذلك .. وبالإسلام ألقى النور على الكعبة وأصبحت مكانا محرما وغير الكعبة مثل مقام إبراهيم .. ومثل أحجار الصفا والمروة .. والسعى بينهما سبع مرات أى حوالى ثلاثة كيلو مترات ..

وتغير كل شئ الآن .. وضع الرخام والجرانيت حول الكعبة وفى أماكن السعى بين الصفا والمروة .. والذين يستطيعون الطواف أو السعى ساروا على أقدامهم .. أو حملهم الناس على رؤوسهم .. أو دفعوهم على مقاعد لها عجلات بين الصفا والمروة .. وأضى كل شئ بالكهرباء .. ولم يعد الناس يطوفون عراة حول الكعبة ، ولا الباعة والحيوانات تعترض سعى الحجاج بين الصفا والمروة .. والكعبة رمز .. وأحجارها رمز .. وأحجار الصفا والمروة رمز .. وأحجار عرفات والمزدلفة رمز أيضا .. والأحجار التى يرمم بها الحجاج الشياطين ليست إلا رمزا أيضا .. وإن كان بعض الناس يتصورون أن رجم الشياطين ، هو رجم حقيقى لشيطان حقيقى ، ولذلك لا يكتفى بعض الناس بإلقاء الأحجار الرمزية ، بل يخلعون نعالهم ويضربون الأحجار التى هى رمز للشياطين .. وبعضهم يطلق الرصاص على أحجار الشياطين .. وبعضهم يصرخ قائلا : أنت الذى جعلتنى أطلق زوجتى .. أنت الذى أعدتنى إلى السرقة وإلى الخمر .

مع أنه لا شيطان خارج الإنسان ، فالشيطان هنا تحت ملابسنا .. فى جلودنا ..
والنزعات الشريرة مثل كريات الدم الحمراء ، إذا كانت النزعات الخيرة هى
الكريات البيضاء . الشر والخير معا . النور والظلام معا . الحياة والموت معا ..
ولذلك فإن ديانات قديمة جعلت العالم مصرعا لهذين العدوين أو الضدين ..

وكل شئ رمز ..

والمطلوب من المؤمن أن يقف وأن يتأمل وأن يفكر .. وأن يجد الوقت ،
ليستعرض حياته أمس واليوم وغدا .

والرسول يقول : الحج عرفة ..

أى أن الوقوف فى عرفات هو الحج . ولا وقوف فى عرفات . وإنما هو جلوس ..
وهدوء .. وعلى الإنسان أن يفكر ، وأن يقرأ القرآن .

ولكن الذى يحدث عادة وبسبب الزحام ، والبحث عن الطعام والشراب والمأوى
ووسائل الانتقال ، ألا يجد الإنسان وقتا لشيء .. اللهم إلا لحظات قليلة ..

ومع زيادة عدد الحجاج عاما بعد عام ، لن يجد الإنسان وقتا للتأمل ، أو التمتع .
والإسلام يريد من المؤمنين أن يجربوا ذلك عمليا . أن يشعروا . أن يستحضروا
المعاني التاريخية . وأن يروا ماذا حدث . وكيف حدثت التضحية والمعاناة والصبر .
والنصر فى النهاية .

ولم يعد الحج عملا شاقا . فالعلم الحديث قد يسر للإنسان كل شئ . فهو فى ساعات
يصل بالطائرة . وبساعات يصل بالسيارة أو الطائرة . وفى دقائق ينتقل . ويقيم ..

ويقرأ ثم ينطلق يجمع الجمرات .. ثم ينطلق يلقيها . وبعد ذلك يذبح الضحية ..
وينتهي كل شيء !

ولكن أناسا من بلاد بعيدة لا يجدون وسيلة لهذه الحركة السريعة . بعضهم
يحيى ماشيا عاريا وأمله كبير في الله أن يموت في الأرض المقدسة . ونساء حاملات
يتعذبن ويتساقطن ، وأملهن عظيم في أن يلدن في الأرض المقدسة .. وأناس بمئات
الألوف يطوفون وقد انهكت قواهم . وجفت أجسامهم .. وحلقوا شعورهم .
ويحدث ما يحدث في الزحام عادة ، في أى مكان ، أن يتخبط الناس بعضهم في
بعض . ويحدث أيضا ما يحدث في أى مكان يتحرك فيه الإنسان جريا وطوافا
وسعيا أن يعرق - ككل كائن حي - وأن تكون للعرق رائحة .. وأن يضيق الناس
بهم .. وهذا الضيق جزء من المشقة .. والإنسان يثاب على قدر المشقة . ولذلك
يحرص هؤلاء المؤمنون البسطاء على أن يتضاعف عذابهم طمعا في الجنة عند الله .
لأنهم مؤمنون . وقد وعدهم الله بذلك . وآمنوا . وجاءوا طامعين في الله .

ويحدث في كل زحام : أناس مشغولون بالله ، وأناس مشغولون بالناس ..
وتتمد الأيدي .. هذا ممكن ، فالإنسان هو الإنسان . والذي يرى الكعبة لأول مرة ،
وربما لآخر مرة في حياته ، غير الذي يراها كل يوم .. هذا مشغول وذلك في
شغل .. هذا حاج ، وذلك طالب قوت ، من أى طريق .. فالإنسان هو الإنسان
في كل مكان ..

ويحار الإنسان بين أن يشكر الله على أن يسر له كل شيء .. وبين شعوره بالخجل
لهؤلاء الطاعنين في السن ، الذين يحملون طعامهم وشرابهم وخيامهم على رؤوسهم

ساعات وساعات في الطريق إلى الكعبة أو في الطريق إلى عرفات وجبل الرحمة،
والمشعر الحرام (المزدلفة) ..

وطبيعي جدا أن يتساءل الإنسان ولكن ما معنى هذا ؟ والمعنى هو أن الإسلام
يطلب من الإنسان أن يطيع ، وأن يتأمل وأن يفكر وأن يتأني وأن يصبر وأن يؤمن
إيمانا مطلقا بالله ورسوله وقرآنه .

ومن حق الإنسان أن يتساءل : ولماذا الصلاة خمس مرات .. ركعتين وأربعاً
وثلاثاً .. ولماذا رفع اليدين ولماذا الركوع والسجود ؟

وكلها أسئلة معقولة . والإجابة عنها أنها أساليب مختلفة في تعظيم الله ، والخشوع
له . ولكن لماذا ؟!

وقبل أن أجيب عن هذا السؤال نتساءل أيضا : ولماذا يعلموننا عند المشي أن
نبدأ بالرجل اليسرى .. ولماذا نمشي على اليمين .. ولماذا علامات المرور ثلاث :
أحمر وأصفر وأخضر .. ولماذا قواعد اللعب .. وقواعد كرة القدم والسلة
والطاولة واليد والماء .. لماذا ؟

إن أحدا لا يسأل عن هذه القواعد التي اتفق عليها ، والتزم بها كل الرياضيين .
لأنها قواعد عامة . وهي واحدة ليكون السلوك العام واحدا ..

ولست فقيها في الدين . ولا مجتهدا . لأنني لا أستطيع وإنما فقط أحاول أن
أحاور نفسي . وأختار ما يقنعني وما يريحني . فكما أن شرط اللعب ، أن تقبل
قواعده كلها ، أو لا داعي لأن تلعب .. بل إنك لا تستطيع أن تكون متفرجا
تستمتع باللعب ، إلا إذا عرفت قواعد اللعب .. لغة اللاعبين والمتفرجين واحدة .

لا أحد يسأل لماذا ؟ وإنما اتفقنا جميعا عليها . لنستريح إلى نظام — والعقل بطبيعته منظم — بفتح الظاء وكسرها أيضا .

وأنا لا أستطيع أن أقى ، لأن معلوماتي الدينية واحد على مائة من معلوماتي الفلسفية ولا أستطيع أن اجتهد لأتقن لم أدرس الدين واجتهاداته وتفسيراته وقرآنه وأحاديثه وتفسيراتها . ولن أستطيع . فالعمر قصير ، والدين طويل عريض عميق . وهذا الكلام لى ولغيرى من الناس العاديين . ولذلك نحن نختار ما يريحنا ونعيش به وعليه ، ونتفق ونختلف من أجله !

والأكل له قواعد والشرب له أصول . والمناسبات والحفلات . والذى نلبسه فى البحر ، والذى نلبسه فى الفراش ، والذى نلبسه فى الأفراح والمآتم ، وفى لقاء الناس الأكثر احتراما — ومع ذلك نحن لا نسأل ولماذا ؟ وإنما نحن نمشي على الأصول التى توارثناها وأرتضيناها . ونكون مثل الجميع . لا شذوذ عن أحد من الناس . والدين . وكل نظام اجتماعى أخلاقى سياسى رياضى عسكرى يريد الطاعة والاحترام والسلام والخير لكل الناس ..

وكل عام يزور هرم الملك خوفو جماعة من الأوروبيين من «عباد قرص الشمس» أو أصحاب علامة « الصليب الوردى » ويدخلون قاعة دفن الملك خوفو .. ويقومون بصلواتهم فى دقائق . ولو رآها الإنسان لسخر منها . ولكنهم يؤدونها مع عميق الاحترام . وينصرفون أكثر إيمانا — مثلا : ما معنى أن يرتدوا ملابس على شكل هرم مقلوب عليه وردة وصليب . ما معنى أن ترتفع الأيدي وتهبط إلى حيث دفن خوفو ، ويصلون للاله أخناتون ويكررون حكمة : اخناتون وسليمان وموسى وعيسى ثم اسم كريستيان روزن كرويتس أول من دعا لعبادة الشمس فى العصر الحديث .

ما هذه الحركات المضحكة ؟ ما هذه البلاهة .. إلى آخر الأسئلة التي فيها استنكار واستخفاف بما يفعلون .

ولو قدر لهم أن يقفوا أمام مسجد من المساجد لأدهشتهم الحركات والدعوات .. والخشوع .. واندھشوا لشكل القبلة التي يتجه إليها الناس . وقالوا ما يعجبهم . ولكن الدهشة متبادلة . والمعنى واحد . كل دين له قواعد وأصول ورموز ويتطلب الطاعة والإيمان . ولكن الإسلام يطالب المؤمنين بالتفكير في كل مخلوقات الله في الأرض وفي السماء وفي الإنسان نفسه ، فليست هذه الأشياء إلا صورا مادية لقدرة الله ، وعن طريق النظر إليها وفهمها ، يصبح الإنسان قادرا إلى حد ما على فهم شيء قليل جدا عن الله !

ولو قلت لكل حاج من بلد بعيد : وما هي أحجار الكعبة إنها ككل الأحجار . وما هي أحجار عرفات ؟ إنها مثل كل الأحجار — ولو قلت ذلك . فإن منهم من يصدق . ومنهم من لا يصدق . ولكن أى ضرر في أن يرى الناس أن هذه الأحجار قد اكتسبت قداسة التاريخ .. أى ضرر في أن يتمسح الناس بأبواب السيدة زينب والحسين وقبر رسول الله .. لا ضرر . ولكن الناس يجدون في ذلك الراحة النفسية . فإذا استراح الناس بالفعل فأى ضرر على الناس أو على الدين .

إن أكثر الأمراض الآن تشفى نفسيا . والذي يسميه الأطباء « بالحساسية » ليس إلا الإحساس أيضا . ولذلك أصبح من الضروري لكل طبيب أن يكون على فهم بعلم النفس . وكان رجال الدين يقومون بهذا العلاج منذ ألوف السنين . وفي مصر الفرعونية . وفي الهند والصين كان رجال الدين أطباء وحكاماء العصر ..

بل إن الذي يتعب كثيرا من السفر إلى الأراضي المقدسة ، يريحه أكثر أن يتلقى مكافأة معنوية على العذاب الذي شواه بالنار في جسمه . هذا الثواب هو

أن يقال له : إن الكعبة تشفى من المرض . والطواف يقوى القلب . والسعى يشد العضلات . وعرفات يجعلك صافيا مغسولا من الخطايا كما ولدتك أمك — ومن الصعب أن يعود الإنسان كما ولدته أمه . كيف . وماضيه وتاريخه .. وما ترسب في نفسه . والناس الذين سيعود إليهم ويعمل معهم وضدهم وبهم .. ويعانى من جديد كل مصائب الدنيا — صعب جدا أن يعود الإنسان طفلا . ولكن يسعده أن ذنوبه وخطاياها قد حملت عنه .. وألقيت من فوق كتفيه ومن فوق ضميره ، ويسعده ذلك . فأى ضرر على الإنسانية أن يشعر الإنسان بذلك . إنها سعادة ولا شك . وراحة وشفاء من كل داء . ومن داء التاريخ . فكل إنسان له تاريخ . وهذا التاريخ يوجعه في كل مكان من جسمه ونفسه ..

والقرآن الكريم يعلم تماما أن الإسلام دين من الأديان ، ولكنه يفضلها . ويرى أيضا أن أديانا كثيرة لم تكن قادرة على التعبير ، ولا حفظت كتبها تماما ، ويعلم أن الخرافات قد دخلت . ولكن الله هو الذى أرسل هؤلاء الرجال ذوى الاستعداد الخاص لتوحيد الناس إلى خير الناس .

يقول القرآن : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى . وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » .

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .
« ولوطا إذ قال لقومه .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا .

« ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون .. » .

وعن عيسى عليه السلام قال : « ورسولا إلى بني إسرائيل » .

« لا إكراه في الدين » .

وأنا أحاول أن أقول لنفسي ما يريخني وأحاول أن أنقله للناس الذين هم ليسوا
من رجال الدين أو التفقه في الدين . ولكن بعضهم حائر . كما كنت حائرا .
ويسألني هنا وفي الأراضي المقدسة كثيرون

— ولماذا الآن !

— ولماذا لا أقول ما اهديت إليه وهو قليل ، في أي وقت ؟ .

— ما المعنى ؟

— إنني أحاول أن أجدمعنى لما قرأت وما حاولت أن أفهم ، وأن أقول أنني أضعت
سنوات طويلة ، وضعت أيضا . وفجأة وهناك وجدت ما يريخني . وجدت ما ينفضني
وما يقتلني من أرض غريبة ، ويعيدني إلى أرض أهدأ وأثبت .. ولو عرفت ذلك
من زمن طويل لكنت أحسن حالا .. ولكن كل شيء له أوان .. ربما كان هذا
أوان هدايتي .

— وسوف تكتب دائما كذلك !

— أتمنى . ولكن لا أستطيع . هذا ما أقوله لنفسي ، لا عن تواضع ، ولكن عن

أسف . فالذى أعرفه قليل . والذى أستطيع أن اجتهد فيه قليل جدا . أو معلوم جدا ولكن سوف أقول دائما ما أستطيع أن أفهمه أكثر ، لعل أنفع أكثر ، وكله عمل . والعمل عبادة . مادام الخير العام هو الذى أقصده ، وكنت أقصده دائما ، فى كل ما أكتب ، أو هكذا أتصور نفسى ..

وأسئلة أخرى من بلاد بعيدة فى رسائل القراء . وهل خلعت ملابسك ؟

— طبعا .

— وهل طفت وسعيت ولييت ؟

— طبعا . إني ذهبت من أجل ذلك . ذهبت وأنا أعرف ذلك ..

— هل ترى نفسك مؤمنا ؟

— أخيرا . هذا مؤكد .

— كيف تجد نفسك الآن ؟

— سؤال صعب .. ولكن أستطيع أن أقول .. كنت صحراء قاحلة ، والآن فيها ماء ، كنت ليلا بلا نهار ، واليوم أشرق فى نفسى ما لا أعرف أن أصفه لك .. هل هو نور .. هل هو نار .. هل هو دفء .. هل هو احتراق .. هل خرجت من جسمى أطراف اعتمدت عليها فى سيرى وفى حركتى .. هل كانت عندى عيان بلا حدقتان .. والآن لكل عين حدة .. هل كنت أقول كلاما بغير منطق ، وأصبح لى منطق .. هل كانت عملى بلا غطاء ذهبي .. والآن أصبح لها غطاء .. هل كان عالمى بلا إله .. فأصبح لى إله .. أو الله — وهو الأصح .

— ما الذى تستطيع أن تفعله ؟

— لا أستطيع أن أفعل الكثير . إن قدراتي محدودة . ومعلوماتي محدودة وما أوتيته من العلم قليل . وكل إنسان كذلك . وأكثر الناس علما أكثرهم تواضعا . وقد تعلمت من الفيلسوف الألماني كانت : أن هناك شيئين يبهزان الإنسان ويغمرانه بالجمال والجلال : النجوم في السماء وصوت الضمير في أعماقي .. وهما اسمان لمعنى واحد هو : الله .

وتعلمت منه أيضا : أن أحنى رأسي أكثر ، لأكون أكثر احتراما ، وأن أغض عيني أكثر ، لأرى أكثر ، وأن أسد أذني أكثر ، لأسمع أكثر ، فإن معرفة الله لا تكون إلا بالصمت والتأمل ونحن كلنا آذان وعيون وأفواه .. ونسينا أن لنا عقولا وقلوبا .. فنحن إذا تكلمنا لم نسمع ، وإذا سمعنا ، لا نفهم . وإذا فهمنا ذهب بنا الغرور إلى أننا قد عرفنا كل شيء . فإذا شعرنا بأننا نعرف كل شيء ، لم يصعب علينا أن ندعى الألوهية .. فإذا أدعينا ذلك . فقد أصبحنا حيوانات مفترسة . تنكرنا لإنسانية الإنسان . وعقل الإنسان ووجدان الإنسان .. وهنا فقط لا إله ولا داعي له .. فليست الحيوانات آلهة !

— ولن يتغير رأيك بعد ذلك ؟

— ليس لي رأى .. وليس الذي أقوله أو أحاول ذلك ، رأيا .. ولكنها حقيقة كشفتها وكشفتني .. وأحاول أن أعبر عنها فقط . فأنا لم أخلق رجلى .. وإنما أنا استخدمهما فقط أو أمشي بهما فقط . والله حقيقة عضوية . كونية رياضية مقدسة طبية فنية .. دينية أخلاقية .. وأنا لم أهتد إليه .. ولكنه هو الذي هداني إليه .. وأنا أحاول أن أصف هذه الخطوة . والذي عرفته ليس مرحلة بعدها أعود إلى مرحلة أخرى . ولكنها نهاية .. وسوف أقضي ما تبقى من عمري أحاول أن أجده طرقا أخرى

إليه .. فهو في كل شيء وكل فكر وكل عصر.. وهو الكل . فالكل فيه وبه وعليه
وله .. هو كل هذا الكل .

— ماذا تقول فيمن لا يزال يعبد الأوثان والحيوان ؟

— أرى أن هذا طبيعي . فهو لم يرتفع إلى مستوى الإدراك الصحيح . فهو بدائي .
والذى يرى الشمس مصدر الحياة أو هي الحياة معذور . والذى يرى أن الماء هو
مصدر الحياة ، ويعبد النيل ، معذور أيضا .. والطفل الذى يرى أن والده هو أعظم
رجل في العالم معذور .. وإذا رأى بعد ذلك أن العسكرى هو أقوى من والده ، وأن
المأمور أقوى من العسكرى . وأن الطبيب أعظم الجميع . هو طفل صغير ..

وأنا أذكر أنني رافقت جماعة من الأشقاء العرب جاءوا من بعيد في الأرض
وفي التاريخ وسألهم عن الشيء الذى أعجبهم في القاهرة .. هل هو النيل .. هل هو
البلاجات .. أو العمارات ، .. أو الفتيات أو السيارات .. ولكنهم لم يعجبوا بشيء
من ذلك . وإنما أعجبهم شيء واحد لا يجدون له تفسيراً .. ويرون أنه أكبر دليل
على وجود الله . وسألت ما هو ؟ قالوا : الأسانسير .. لأنه يطلع وينزل بلا صوت
ولانار ولا دخان !

مع أنهم جاءوا إلى القاهرة في طائرة نفثة .. لها صوت وصراخ . ولذلك فإن
الأسانسير أفضل منها . مع أن الأسانسير آلة بسيطة جدا إذا قورن بالطائرة الشديدة
التعقيد !

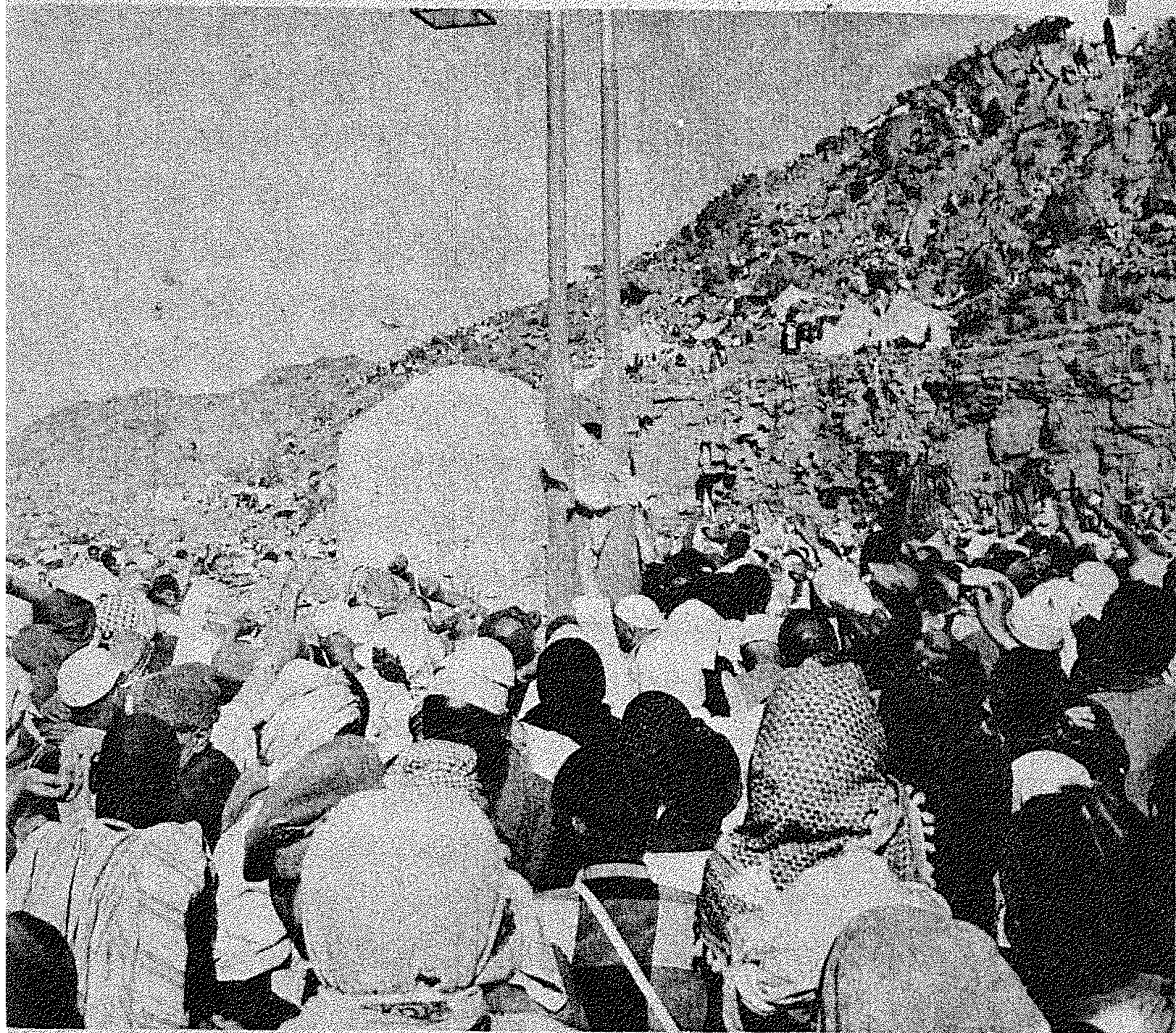
واعتقد أننا أيضا في مرحلة الإعجاب الشديد بالأسانسير .. ولم نصل بعد في علمنا
وفهمنا إلى مراحل الطائرة أو الصاروخ أو سفن الفضاء .. أو مدن الفضاء أو أتوبيسات
الفضاء ..

واقترح كثير من الأصدقاء أن أكتب في موضوعات شتى . وهو حسن ظن
لا أستحقه ، ولن أفعل ذلك الآن فأنا أعرف حدودى العلمية والعقلية . ولكن إذا
تيسر لى ذلك فسوف أفعل إن شاء الله قريبا ..

وبعد ..

فلأننى لم أقل كل ما أريد .. وإنما قلت بعض ما أستطيع . ولم أشأ أن آخذ القارئ
فى دوامتى العقلية والوجدانية . وإنما حاولت فقط أن أصور عذابى العقلى وحيرتى
الدينية .. وكيف أننى خرجت منها إلى شاطئ أمين .. شاطئ طويل عريض لا أعرف
فيه إلا القليلين من الناس ، والقليل من الأشياء .. وأمامى بحر لا أعرف كيف أصبح
فيه .. وكم أبعد عن الشاطئ . ومتى أعود إليه ، ومتى أخاف منه ، ومتى أنقذ
نفسى . أو أصرخ فى أحد أن يفعل ذلك . وإنما أعلم أنه لا أحد ينتظر أحدا .
ولا أحد يرى أحدا . إن كل إنسان مشغول بنفسه . بهيمومه . ولذلك فالناس
لا يسمعون الناس . وإذا سمعهم فلكى يستفيدوا منهم . فالحياة فائدة متبادلة .
وسلعة تروح وتجيئ . وعملة تزيد وتنقص . ويد تأخذها ويد تأخذك . وعين تراك
وعين تتجاهلك . هذه حياة كل الناس . والناس معذورون . فالحياة صعبة وقصيرة .
ولكنى طلبت من الله الكثير ، فأعطانى القليل الذى أستحقه . وكنت أريده
أكثر . وسوف أطلب أكثر وأخذ أكثر . فالله قد وعد بذلك . ولكن القليل شفىانى :
راحة نفس ، ووضوح رؤية ، وصفاء عقل ، وانشراح صدر ، وسهولة فى التعبير
عما فى نفسى .

وليس هذا قليلا ، فالحمد لله ..

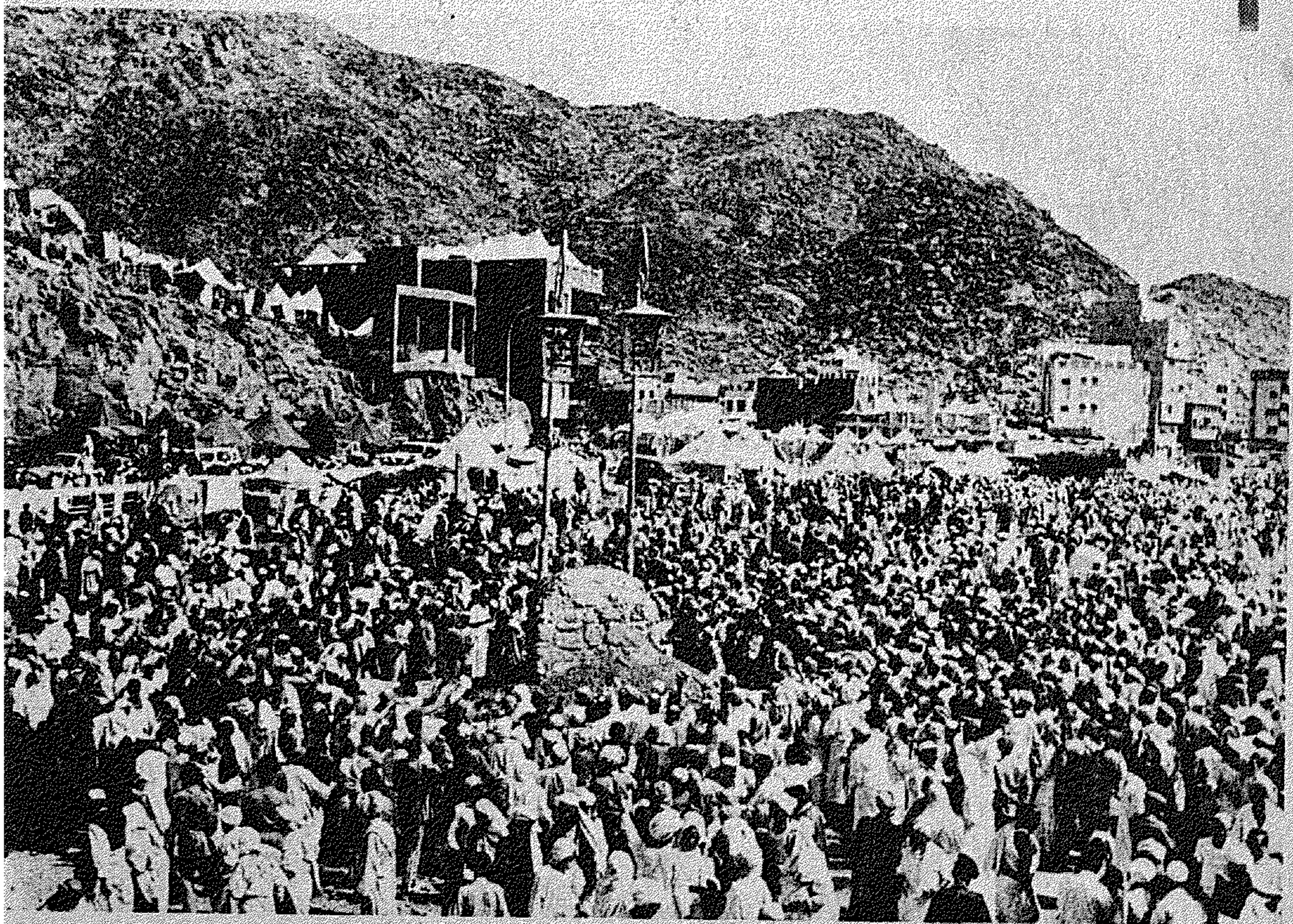


ولا يزال المسلمون يتنقلون بين الأماكن
المقدسة في عرفات وفي منى وفي المزدلفة . .
كل خطوة صلاة ، وكل صلاة خطوة إلى الله
وفي سبيله . .

أكثر من مليون مسلم جاءوا إلى الأماكن
المقدسة . . الشوارع تضيق عنهم . . ولكن
هناك محاولات دائمة شاملة لتيسر على المشاة
وعلى الذين يملكون السيارة . . حتى تكون
الرحلة إلى الله سهلة على الجميع . .



.. جانب من منى . . المسلمون كلهم يتزاحمون
في الخير ، عراة ، تلهج السنتهم بالدعاء إلى
الله أن يقوى ضعفهم ، ويشفيهم من مرضهم ،
وأن يجعل السلام والسكينة طعامهم وشرابهم
إلى يوم القيامة . .



كان بعيداً عن الناس واسمى منهم!

أن يكون أبعد وأعلى ..

ولذلك ذهب إلى « غار حراء » وهو في العشرين من عمره ..

بل إنه كان بعيداً عن الناس وأسمى منهم وهو ما يزال طفلاً .. غريب هذا الطفل وهذا الشاب وهذا الرجل .. نظيف ، أمين ، صادق ، إذا ذهب الشبان للهو لا يذهب ، وإذا حضر اللهو غلبه النوم .. إنه بعيد عنهم حتى لو اقتربوا منه .. غائب عنهم حتى لو التفوا حوله .. إن الذي يدور في داخله شيء آخر مختلف .. إنه هو نفسه لا يعرف ، ولكنه أخلص لطبعه وطبيعته وسار وصعد يرى ويسمع ويتأمل.

فى العشرين من عمره صعد جبلا على مدى ثلاثة كيلو مترات من مكة.. الجبل اسمه الآن (جبل النور) أو جبل حراء .. تسلقه عشر سنوات فى أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . وفى أيام الجمعة والسبت والأحد ينزل يعيش بين أهله غريباً عن الناس ..

وبعد سنة واحدة من ذهابه إلى « غار حراء » تزوج خديجة ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره . يصعد الجبل ومعه القليل من الشعير ولبن الماعز .. يقضى النهار والليل .. فى صمت فلم يكن وحده . وإنما كان مع كل معانى الكون . فليس أعظم من أن يكون الإنسان فوق ليرى كل شئ صغيراً .. الناس وحياة الناس وهذه الدنيا .. ويرى الله كبيراً فى خلق الناس وهذا الكون .. فى السماء والأرض .. وفى العقل وفى النفس .. كل شئ ذاهب . إلا الله باق .. كل شئ كثير إلا الله واحد .. كل شئ صغير إلا الله جليل ..

ما هذا الذى يفعله الناس هناك .. وحول الكعبة ؟

فهو من الغار الذى أقام فيه عند قمة الجبل يرى الكعبة .. حولها أناس وكلاب ولصوص ومخمورون ونساء كلهم يتزاحمون . وبسرعة يختلفون وترتفع السيوف وتسيل السماء ويحى الذباب ..

هذه هى مكة .. وسميت مكة لأنها جافة من الماء .. ويقال : مك الشئ أى امتصه .. فهى تمتص الذنوب .. ولكن ذنوب هؤلاء الوثنيين عندما تمتصها مكة تتجدد من جديد .

هنا المعبود اسمه « هبل » إنه تمثال من حجر العقيق بذراع واحدة .. وتجي القبائل تضع للتمثال ذراعاً من ذهب .. وأمام « هبل » يستغرق الناس فى لعبة

« الزهر » .. وعلى كل واحدة من الزهر مكتوبة كلمة : .. لا .. أو نعم ..
أو كلمات : .. لى .. لك .. للمعبود « هبل » .. والناس يلتفون حول التمثال يرمون
الزهر أمامه .. ويدبحون الجمال .. ويأكلون ويشربون .. ويقدمون القرابين
لهذا الحجر الذى صنعه بشر ، ويحميه بشر . ويدعوه ويدعو عليه .. ويصق
عليه بشر أيضاً .. ولكنهم يعبدونه ويستحلفونه ويصدقونه ..

وهناك حجر اسمه : اللات .. يعبدونه ..

وهناك ثلاث نخلات اسمها : العزى يعبدونها ويلقون عندها همومهم وكروبهم
ويدبحون أغنامهم وإبلهم .. ويقولون إن النخلات الثلاث تكلمهم وتكشف
أسرارهم وتفضحهم بعضهم أمام بعض .. فهم جاءوا من أقصى الصحارى ليتعروا
أكثر أمام الآلهة .. وهكذا تتجكم فيهم الأحجار وعادات قبلية أكثر قسوة من
الأحجار . والكثير يدورون حولها ويبيعون ويأكلون ويشربون ويتسولون هم
وحيواناتهم .. ويعلقون على جدرانها ثرواتهم وفى داخلها يضعون عقودهم
ومواثيقهم .. ولكن لا قداسة للمكان لأنه لا قداسة لأحد .. فلا أحد إلا الأوثان
وإلا الأحجار وإلا السيوف والدم والفجور والبطش والجوع .. وحروب القبائل ..
وإلا ثروات الأغنياء وجشعهم وذل الفقراء وهوانهم .

ومن هناك فوق ما الذى يراه الرسول محمد من غار حراء .. يرى من بعيد
حجر الصفا .. وحجر المروة .. والطريق بينهما من تراب وذباب .. وهناك
تمثال من حجر يعبده الناس .. ويمسحون أيديهم ووجوههم .. وأطرافهم الموجوعة ..
وتمثال آخر تمسح عنده النساء بطونهن وظهورهن وصدورهن ويتمنين شيئاً من
الذرية أو من السعادة الزوجية ..

وليس هذان التمثالان لأحد من الناس الطيبين - إنهما لاثنين من الفاسقين ..
ففي ذلك الوقت كان كل شيء هنا خانقاً كل شيء في مكة وحول الكعبة .. الشمس
محرقة والناس يهربون منها إلى الخيام وإلى النخيل وإلى النوم .. وجاء الليل
فازدادت الحرارة واختفى الناس .. وتسلسل رجل وامرأة إلى داخل الكعبة ..
وتجاورا والتصقفا .. حتى تحولا إلى تمثالين من حجر .. وأصبحت فضيحتهما
عملاً فنياً .. تمثالين بارزين .. دليلاً ملموساً مقنعاً .. ورجمهما الناس ولعنوهما ..
وتكاثر الرجال حول الكعبة .. وتكاثرت الأيام ومضت بعدد الرمال حول الكعبة .
ونسى الناس من هما صاحبا التمثالين .. وظن الناس أنهما من الآلهة .. وانتقل
تمثال الرجل واسمه : أساف .. والمرأة اسمها : نائلة . أحدهما عند الصفا .
والآخر عند المروة .. وعبدتهما الناس .

ومن جبل حراء هذا بنيت الكعبة .. ويقال إن (شيث) بن آدم عليه السلام
أخذ أحجار هذا المكان المقدس من جبال سينا ولبنان وحراء . ولما جاء إبراهيم
عليه السلام وابنه إسماعيل أقاما الكعبة من أحجار جبل حراء ..

وعندما كان النبي عليه السلام شاباً كان يحمل الأحجار المقطوعة من جبل حراء
على عنقه وعلى رأسه .. ولما اختلفت القبائل أيها يضع الحجر الأسود في مكانه
احتكموا إلى رسول الله .. ووضع الحجر الأسود في ثوبه ... وأمسكت القبائل
ثوبه كل من ناحية .. وامتدت يده هو ووضعته في مكانه . واستراحت
القبائل إلى أنها شاركت في وضعه .. فلا فضل لقبيلة على أخرى . وكان وضع
الحجر إشارة إلى أن الرسول سوف يضع حجراً وراء حجر لدين كريم لقريش
وكل القبائل الأخرى والشعوب ..

وهناك ومن غار حراء الذي يتسع لخمسة جالسين معاً ، كان الرسول يرى

كل هذا الكفر والفسوق ولا يطيقه ولكنه لا يعرف ما الذى يمكنه أن يفعله ..
أو ما الذى يستطيعه .. إنه واحد ، وهم كثيرون .. إنه فقير وهم أغنياء .. إنه يتيم ..
إنه نظيف .. إنه أمين .. إنه مختلف .. إنه لا يستطيع أن يشارك .. أن يمد يداً ..
أن يغض عيناً .. إنه فوق .. وأنه بعيد .. وأنهم فى أسفل السافلين .

ولما تزوج السيدة خديجة . كانت ترى أن شيئاً عجيباً يضاف كل يوم إلى هذا
الزوج الصالح .. أول ما رأت .. أنه إذا نام وقام وروى لها حلماً يكون الحلم
صادقاً . فكل ما يراه يقع . فلم يكن حلماً وإنما هى رؤية صافية صادقة . إنه يرى
ما سوف يحدث .. وليس هذا بالقليل . إن الإنسان يحدث له ذلك مرة كل سنة ..
أو مرة فى العمر كله .. وعندما يكون فى حالة توازن للجسم والنفس أى إذا ما كان
فى حالة سواء .. صفاء .. شفافية ..

إن علماء النفس يجدون فى الروى الصادقة دليلاً على أن هناك قدرات خارقة
عند بعض الناس بعض الوقت .. وهذا معناه أن الإنسان يستطيع أن يرى أبعد
 مما يرى الناس .. فأنا إذا رأيتك الآن .. فأنا أراك فى هذا المكان وفى هذه اللحظة ..
وإذا ابتعدت عنى عشرة آلاف متر فإننى لا أراك .. لأن قدرتى على الرؤية فى
المكان محدودة .. وإذا أنت جئت إلى نفس المكان الذى تقف فيه فأنا لا أراك
إذا لم أكن موجوداً .. فشروط الرؤية أن نكون معاً على مسافة واحدة فى المكان
والزمان .. ولكن الذى يرى ما يحدث على مدى ألوف الأميال .. وعلى مدى
ألوف الدقائق أو الساعات هو العجيب الغريب .. إنه يرى ما سوف يجرى فى المكان
والزمان وبوضوح كل يوم .

وبعد ذلك كان الرسول عليه السلام يتأمل كثيراً .. يصمت . ويطيل النظر .

وينشغل تماماً كأنه يستمع إلى أحد غيره . أو يستمع إلى أصوات لا يسمعها الناس ..
فهو بعيد النظر وبعيد السمع أيضاً .

وكان الرسول عليه السلام عندما اختار غار حراء اختار العزلة العالية والوحدة
الرفيعة . والسمو الشاهق ، وأن يكون في معية الكون كله .. قوانين الكون وحكمة
الحياة وأصل الوجود .. هناك بعيداً عالياً عن الناس والأشياء .

وفجأة جاءت الأحداث الجلييلة .. لقد رأى وسمع .. رأى وسمع من يقول له :
اقرأ .. وهو لا يعرف القراءة ولا يعرف ماذا يقرأ .. فالصوت يقول له : اقرأ ..
مرة ثانية وثالثة .. والرسول يقول : ما أنا بقارئ .. فيقول له : اقرأ وربك الأكرم
الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ..

وكان الصوت مليئاً عميقاً .. هزه من رأسه حتى أصابع قدميه .. تفجرت فيه
الحرارة والعرق . والبرودة والخوف والفرع . شئ عجيب غريب .. ما رآه قبل
ذلك .. ولا انتظره .. ولا عرفه ولا سمع به .. هبط الرسول من جبل حراء .. إلى
زوجته يطلب إليها أن تحتضنه أن تمسك به .. أن تحميه . أن تعينه على ما هو فيه .
وهي تعرف أنه صادق . وأنه أمين . وأن شيئاً لا تدريه هي أيضاً سوف يحدث له ..
وحدث له .. وأخذته إلى راهب قرأ في المسيحية واليهودية .. ولما روت له ما حدث ..
أكد لها أنه نبي .. وأنه سوف يكون نبي هذه الأمة .. فالذى جرى له .. وجرى
عليه ، قد حدث لموسى .. من قبل .. وحدث للنبيين من بعد موسى ..
والقرآن يقول : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده .

هذا هو الوحي ..

ينزل صورة وصوتاً .. يملأ كل شئ حوله .. إن قوة هائلة طولها السماوات

والأرض تدخل في جسمه الصغير .. تفيض فيه .. تتدفق بغزارة وحرارة .. إن تياراً كهربياً عالياً يلمسه فيزهه بعنف .. وكان الرسول لا يقوى عليه .. كان يصاب بما يشبه الحمى .. وكان هذا الوحي ينزل عليه جالساً وماشياً وراكباً .

فإذا نزل عليه وهو فوق ناقته كانت الناقة تبرك على الأرض .. وتلهث كأن الذى يجلس عليها جبل .. فإذا فرغ الوحي من تبليغ الرسالة ، عادت الناقة ترفع رأسها .. كما يعود الرسول إلى حالته العادية ..

والله يقول له : « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » ..

والرسول يقول : شيبتنى « هود » وأخواتها — أى سورة هود وسور أخرى كثيرة .. فقد كان نزولها عليه يهزه ويهده .

وظل الرسول يتلقى الوحي .. ويدعو إلى دينه الجديد سراً . وجاءه الوحي يدعو به إلى أن يجاهر بالدعوة .. يقول الله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .. وجاهر الرسول بالدعوة . وجاهر المشركون بالإيذاء له ولأتباعه من المسلمين .. ولكنه مضى يدعو في كل مكان .. واستمر الناس يتربصون به في كل مكان .. وطارت الأحجار وأحشاء الحيوانات والدماء يلقونها عليه أينما ذهب .. وهو صابر على دعوته .. إنه يدعو الناس إلى ترك عبادة الأوثان .. إلى السلامة .. إلى النظافة والطهارة .. والرحمة والتواضع .. وإلى أن متاع الدنيا قليل . وإلى أن الله أبى من كل ما في أيديهم وفي نفوسهم ..

وازدادت قريش ، قبيلته ، قسوة عليه وعلى المؤمنين به من الأطفال والشبان والنساء والعبيد . وقالوا : دين الضعفاء — ولكنهم أقوياء بدينهم وبربهم ..

عشر سنوات يدعو فيها الرسول علناً في مكة .. وحول مكة .. والعذاب

والهوان والاحتقار والتهديد والوعيد والإغراء بالمال والسلطة ، يرفضها الرسول
والمؤمنون . .

والرسول يدعو الله قائلاً : يا مقلب القلوب ثبتني على إيماني بدينك .

ويوم ذهب الرسول إلى الطائف على مدى ستين كيلو متراً من مكة يدعو ويبشر
وينذر . . طردوه . . ووقفوا صفين . . ثم جلسوا صفين وكل واحد في يده قطعة
حجر . . سار الرسول بين الصفين . . وكلما وضع قدماً دقوها بالحجارة . .
حتى دميت قدماه . . ومن أعماقه قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . .
وقلة حيلتي وهواني على الناس . .
ذلك الدعاء الجميل الصبور .

ونزل الوحي يطلب إلى الرسول أن يهاجر . . وكان الرسول قد رأى في نومه
أنه سوف يهاجر إلى مدينة فيها نخل . . وفي المدينة ذاق طعم التمر لأول مرة في
حياته !

وهاجر المسلمون إلى الجنوب وهاجر منهم آخرون إلى المدينة . .
وكان الرسول ينظر إلى مكة حزيناً ويقول : « والله لئنك لأحب البلاد إلى
نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » .
وذهب الرسول وأبو بكر إلى غار ثور . . وأقاما فيه ثلاث ليال . . وكاد
المشركون يمسكون بهما . وفزع أبو بكر . وقال له الرسول : ما ظنك باثنين الله
ثالثهما . .

ونزل القرآن يقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا
ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تخزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته

عليه ، وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم» . .

وبعد ثمانية أيام أو عشرة وصل الرسول إلى مشارف المدينة المنورة . . واستقبله أقاربه من بني النجار يتغنون :

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا

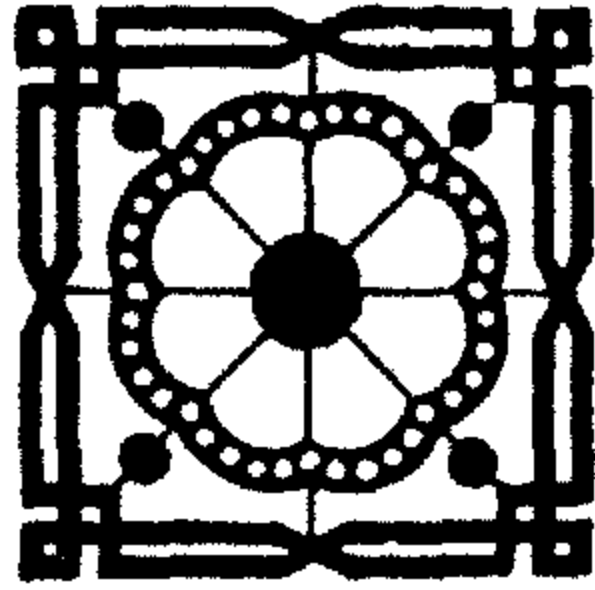
جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة

مرحباً يا خير داع

طلع البدر علينا

* * *



ثأف اثنين إذ هما في الغار

ومن الذى لا يحاول أن يسير فى نفس الطريق الذى سار فيه الرسول العظيم . .
فى هذا الطريق إلى غار حراء سار الرسول أكثر من ألقى يوم . . طالعاً نازلاً . .
متفكراً متأملاً متألماً — خفيفاً بصفاء روحه وثقيلاً بهموم قومه وكل الناس .
الناس يسمونه « جبل النور » فنه وفيه ظهر جبريل . . ومنه خرج نور يهدي
الناس إلى سواء السبيل . . إلى كلمة سواء . . إلى ما هو أنفع وأرفع . . الطريق

صعب . . وأنا لم أستعد لهذا الصعود . . ولا خبرة لى به . وكلما عرضت هذه
الفكرة لم يفلح أحد فى أن يخفى استخفافه - أو دهشته . . أما الدهشة فلأنه طويل
صاعد صعب . . ولأنه من الصعب على من اقرب من الخمسين ويزيد وزنه
على الثمانين أن يصعد كل هذه الصخور إلى ارتفاع شاهق . . ووجدت الناس
على حق . . ولكن أريد أن أرى . أن أمشى . أن ألمس . أن أستذكر . . أن
أسترجع . أن أكون على مقربة من مكان تغيرت فيه الدنيا . . هناك متنفس رجل
عظيم - هناك . . فوقه . كان الرسول وحده مع الله وحده . . كانت السماء تعد
جسمه لأن يكون جهاز استقبال فريداً . . . يستقبل كلمة الله التى هى السماء
والأرض وما بينهما . . إن جسم الرسول لابد أن يعد لإعداداً خاصاً . . لابد
أن يروض على الصفاء أكثر ، والنقاء أشد ، والإحساس أرفف . . لابد أن
يتعرض للضوء الباهر ليعاد ترتيب خلاياه وذرات عقله وقلبه . . وفى هذا الغار ،
فى هذه الغرفة الصخرية وعلى هذا الارتفاع وفى مواجهة نور السماء ، أعيد تكوين
الرسول ليقدّر على أن يتحمل الضوء الإلهى والصوت الملى والكلام المنزل .
ووقفت عند سفح الجبل من الناحية الأخرى . . لا توجد أية معالم لأحد قد
صعد . . ولكن من المؤكد أن كثيرين أشد إيماناً وأخف وزناً وأكثر حيوية قد
صعدوا كالغزلان . . ولكن ما الذى صعدوه . . الصخور متقاربة . . مثل أنياب
من الجرانيت مفتوحة . . لا أكاد أتقدم خطوة حتى أقع بين نابين . . قدمى على
ناب ويدى على ناب . . وأمامى وورائى أنياب . . والصخور نظيفة بمسحها الهواء
أولاً بأول . . وقد نصحنى كثيرون أن أخطو إلى الأمام وألا أنظر ورائى . .
فالتريق أمامى طويل صاعد عصبي . . لا يكاد ينحنى بمئة ، حتى ينحنى إلى اليسار
وبحدة وشدة . . وفى أول « الطريق » - وليس هناك طريق - أشجار وعلى

الأشجار تعلقت لفافات من القماش . . فالناس يلفون القماش حول غصن صغير ويطلبون من الله ، بحق هذا المكان الكريم ، أن يحل عقدهم . . كثير من العقد على هذه الأشجار . . وقد رأيت مثل هذه « البدع » في أماكن كثيرة . . رأيها عند « حائط المبكى » ، فاليهود يكتبون شكواهم ويلفونها في ورقة ، ثم يضعون الورقة بين الأحجار . .

وفي أضرحة الأولياء في مصر يلتقي الناس بخطاباتهم إلى الأولياء . . تماماً كما يفعلون ذلك مع الحكام ، وكأن الأولياء أحياء قادرين على أن ينفعوا الناس أو يضروهم . . ولكن الناس يستريحون إلى ذلك . . وفي اليابان وجدت الناس يهزون المكناس التي في مداخل المعابد . . أملاً في أن تقوم الآلهة بكنس هموم الناس وتعاستهم . . ورأيت الناس عند تمثال بوذا يلقون عليه الورود بعد أن يقطعوا من كل وردة ورقة . . ثم يقولون معها كلمة دعاء . . ورأيت الناس في الهند يلقون بملابسهم القديمة في الأنهار المقدسة — لعل الأنهار أن تأخذ أمراضهم وشقاءهم إلى غير رجعة . .

وفي الطريق إلى الغار وجدت الناس يكتبون أسماءهم على الصخور . . ولكن الطريق ليست له معالم . وكنت أنظر إلى القمة التي لا أراها بوضوح . . وأمد يدي إلى الصخور . . وأرفع ساقى . . وأتسلق ولا أعرف ما بعد ذلك . . وأقول : كان الرسول إنساناً آخر . . وكان شاباً . . وكانت عنده قضية كبرى ، وتنتظره نداءات السماء .

وطال الطريق . وتوقفت ألث . . وأحسست أنني ارتكبت مجموعة من الأخطاء . . فلم أرتد حذاء يمسك قدمي فلا تنزلق . . وكنت أرتدى جلباباً . . وكنت أذوب عرقاً . والجلباب لا يمتص العرق . . وإنما يتركني وحدي في مهب الهواء البارد . .

ولو كنت أرتدى قميصاً وبنطالوناً لالتصق القميص بمتنص عرقى ويمتنص خوفي
من لفحة هواء لصدرى وحلقى .. ولم آت بعصا أتوكأ عليها .. ولم أتعلم تسلق
الجبال .. بل لأننى لا أقوم بأية رياضة فى مصر . ورياضتى الوحيدة هى هبوط
سلام « أخبار اليوم » بأدوارها التسعة ..

وأذكر أننى تمسيت مع الصديق أحمد فراج على النيل نصف ساعة ، بعدها
رحنا نهى أنفسنا بفاتحة النشاط العظيم الذى سوف ينظم الدورة الدموية ، ويزيل
الشحم ويشد اللحم ، ويشحذ العقل ويقوى القلب .. وكانت مرة واحدة ..
وكان ذلك رقماً قياسياً لنشاطنا فى عام كامل .. وأنا الآن أصعد الجبل ..
وأحاول أن أقرأ الأسماء على الصخور - ولم تكن محاولة القراءة إلا حيلة لكى
أتوقف بعض الوقت لأشم نفسى ، ولتبرد حرارة جسمى - ولكنى فى نفس
الوقت لا أستطيع أن أقف طويلاً فأنا أخشى أن تغرب الشمس فلا أعرف كيف
أهبط الجبل .. وهذه غلطة كبرى أننى صعدت الجبل قبل الغروب بقليل !

وتكاتف الصخور كلها مرة واحدة كأنها لا تريد أن أذهب إلى أبعد من
ذلك . فالصخور كتلة واحدة .. كأنها حائط .. كأنها سقف .. سد منيع . وفى
لحظة ضعف فكرت أن أكتفى بهذا القدر على أن أعود غداً .. ولكن هذه
الفكرة ألقيتها فوق هذه الصخور بسرعة ورأيتها وقد تبددت إلى ذرات ..
وكل ذرة منها انقلبت عفريتاً .. أو إبليس الذى كان يريد أن يصدنى عن شئ
رائع يتمناه كل أحد ! ..

وبعد دقائق طويلة ... واستراحة بعد أخرى .. وجدت مكاناً على شكل حوض
ماء .. الحوض جاف .. كانت إذا نزلت فيه الأمطار بقيت بعض الوقت ..

ولا بد أن المساء يكون بارداً على هذا الارتفاع . . ولا بد أن الناس كانوا يشربون منه . . ولكنني لم أجد ماء . . وإنما بقايا المساء على الجدران . . ووجدت سلماً صغيراً ينزل إلى عمق الحوض الذي يبلغ المتر - أما طوله فتران وعرضه متر ونصف متر . .

وبعد ذلك عاودت الصعود . . الأحجار ما تزال حادة بارزة . . إنها أنياب أو أضراس حيوان متوحش كلفتته السماء بأن يحرس صاحب الغار . . بعيداً حتى عن الهواء إذا فكر أن يتسلل إلى هدوئه الكريم . .

وعند قمة جبل حراء . . هذا هو الغار . . أو الجانب الخلفي من الغار . . له فتحة على شكل شفتين متجمدتين من الحجر الأحمر الجرانيت . . كأن الغار أراد أن يقول شيئاً ، ولكن فجأة تحولت صرخاته إلى شفاه جامدة فسكت منذ ذلك الوقت . . وإنما الذي نطق بالحق هو الرسول الكريم . .

والغار له فتحة من الناحية الأخرى في مواجهة مكة . . في مواجهة الكعبة . . وكان الرسول عليه السلام يقف في هذا المكان . . ثم ينزل بساقيه ويتساند على هذه الصخرة بالذات . . ثم يدخل الغار وقد حنى رأسه قليلاً . . ثم يضع طعامه . . من لبن الماعز . . وبعض الخبز . . ثم يجلس . . ثم يسند ظهره إلى داخل الغار ويتوجه إلى السماء . . فإذا جاء الليل . . دخل الرسول إلى عمق الغار وأسند ظهره وراح يفكر في أمر الناس . . ما كان منهم وما سوف يكون . . ولكنه لا يدري ما الذي يدفعه إلى هذا المكان . . إنه مدفوع إلى هنا . .

وعلى الغار كانت قبة . . انهدمت . . ولم يبق من هذه القبة البيضاء إلا جدران صغيرة ان طليا بالجير الأبيض . . فيراهما الإنسان من مكة . . ومن عرفات . .

أما مدخل الغار فمسلود بالأحجار أيضاً فقد كان من عادة الناس أن يجيئوا إلى هذا المكان ، وهي رحلة شاقة . . وبعضهم كان يسقط ميتاً . وبعضهم تحطمه الصخور . وبعض الناس كان يقيم الليالي الطويلة في الغار . . والغار ضيق . والناس يتزاحمون . وبعضهم يتعبده . ولم يأمر الرسول أحداً بأن يفعل ذلك . . ولكن التعبده في هذا المكان بدعة . . ومشقة . ولذلك سدت فتحة الغار حتى لا يذهب أحد إليه . .

* * *

قال لي الأمير فواز أمير مكة المكرمة إنه عندما كان في السيارة مع الرئيس السادات والقذافي قال للرئيس السادات : إن بعض الناس يذهب إلى جبل النور ، ويتعذب كثيراً حتى يصل إلى غار حراء . ويبقى فيه ، مع أن هذا ليس من الدين في شيء .

وقال له الأمير فواز : إن الأخ أنيس منصور قد جاء أكثر من مرة حاجباً ومعتماً ليذهب إلى غار حراء . . ليكمل كتاباً له . . وأخشى أن يفعل نفس الشيء . . وقال له الرئيس السادات : أعتقد أنه جاء ليتأمل ويكتب بعد ذلك .

فقال الأمير فواز : فإذا ذهب وأقام في الغار ؟

قال الرئيس السادات : إذا فعل ذلك ضعه في السجن !
ووجدت الغار مسدوداً بالطوب الأحمر . . حتى لا أدخل السجن !

* * *

ولا أخفى شعوري بالفرع والرجفة عندما وقفت فوق الغار . . مع أن الغار

أحجاره ككل الأحجار . . أحجار عادية . . ولكن المعنى . . المناسبة . .
التاريخ . . شئ يخيف ويهز ولا يجد الإنسان ما يقوله . فما الذى يمكن أن يقوله
أحد بعد الذى قاله صاحب الغار . . ما الذى يمكن أن يقوله عنه وعن الذى قال . .
إن صاحب الغار قد كان له رأى فى كل شئ . . وله وقفة عند كل قضية .
ومن الصعب أن يكون لك رأى إلى جانب رأيه أو حتى وراء رأيه أو اجتهاد
فى الذى قاله . . صعب جداً . .

إننى قرأت ما كتبه الدكتور هيكل عن محمد . .

وما كتبه العقاد . .

وما كتبه طه حسين . .

كل واحد حاول أن يجد طريقاً مريحاً إلى المعنى الذى يريده . . الدكتور هيكل
حاول أن يعرض قضيته وأن يدافع عنها . . والعقاد حاول أن يعرض نفسيته
وعقليته وأن يجلوها وأن يقنع بها . . وطه حسين حاول أن يجد قصة . . حكاية . .
يسهل عليه روايتها ، ويمتدح الناس إذا تحدث عنها . .

ويبقى الرجل كبيراً عظيماً لا نعرف من أين نأتى إليه . . الطرق إليه كثيرة جداً . .
ومتشعبة ومتداخلة . . ومضيتة حتى لا تقدر أن تطبق عينيك . . والذى قاله
لؤلؤ وماس وأحجار أخرى كريمة . . ولا نعرف كيف تصنع منها عقداً أو قرطاً
أو خاتماً . . ولا نستطيع أن تدع شيئاً ، ولا تقوى على أن تأخذ كل شئ . . إنه
شخصية باهرة . . كيف استطاع كل ذلك وحده . . كيف واجه الظلام بالنور ،
والضلال بالهدى ، والقوة بالحق ، والعذاب بالرحمة ، والهوان بالإيمان . .

كيف هاجر من مكة . . كيف خرج منها ليعود بعد ذلك فاتحاً لها محطماً
أصنامها . . منظماً فوضاها . . ثم ليعود مرة أخرى إلى المدينة يلتقى ربه ويدفن فيها . .

ويكون له المكان الطاهر : قبره ومسجده وتكون قبور زوجاته وصحابته وأنصاره .

لقد دخلت قلب الكعبة عشر مرات . .

أربع مرات وراء الملك فيصل . .

وأربع مرات وحدي . .

ومرة وراء الرئيس جعفر نميري . .

ومرة وراء الرئيس السادات . .

ونعمرتني الراحة وأحسست أن شراييني من النيون الهادي . . بلا حرارة ولا صوت

. . وإنني في حالة بين الحياة والموت . . فلا أنا حي أشعر بجسمي ، ولا أنا ميت

بلا جسم . . ولكنني فوق وجسمي تحت . . وخط رفيع يربطني بالاثنتين . .

وعندما خرجت من الكعبة أخذت أشعر بجسمي قطعة قطعة حتى أصبحت ثقيلًا

على وجداني وعلى فكري . . وأعيدت لي حياتي العادية . .

وفي داخل الكعبة كل شيء نغمسوه في ماء الورد . . ماء زمزم مع ماء الورد . .

الأرض غسلوها ، والجدران بللوها . . وفي ركن داخل الكعبة ستار . . وينصحك

بعض حراس الكعبة أن تختفي وراء الستار وأن تطلب من الله أن يتوب عليك . .

فهو ركن التوبة . . ودعوت الله . . وفي الظلام اصطدمت بالذي يركع والذي يسجد

والذي يبكي والذي يبذل ملابسه في ماء زمزم .

ولكن إحساسي في مسجد الرسول شيء آخر . . من نوع آخر . . فهنا كان

يقيم الرسول . . وهنا كانت زوجاته . . وفي بيت عائشة وعلى صدرها مات . .

وفي ملابسه غسلوه وبها دفنوه . . وعند كتي الرسول دفن أبو بكر . . وعند قلبي

الرسول دفن عمر . . وكان المسجد النبوي صغيراً - ٢٠ متراً في ٢٠ متراً - فقد كان

عدد سكان المدينة بقراها السبع ثلاثة آلاف نسمة نصفهم من اليهود . . والنصف
الباقى من الوثنيين ثم أصبحوا مسلمين بعد ذلك . . والناس لا يطوفون حول قبر
الرسول . . كما يفعلون حول الكعبة .

ومن هنا كان يخرج من بيته . وهنا كان يصلى . وهنا كان يتحدث إلى الناس .
وهنا خرج مريضاً . وهنا مرض . ولقى ربه .

لا بد أن الرسول كان شخصية ساحرة . فالذى يقرأ ما قال ، والذى يقرأ ما فعله
الناس عندما سمعوا ما قال . . ولم يكن له مال ولا سيف . وإنما فقط ما يقول .
وقدرته على إقناع الناس . بصدق شخصيته وأمانته والقُدوة النادرة التى كان عليها . .
ثم إنه كان بشراً ينتصر وينهزم . ويغضب ويمرض ويموت . والقرآن يقول : « إنك
ميت وإنهم ميتون . . ويقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ،
أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » . .

ومات الرسول - عليه السلام - فى يوم الاثنين وهو اليوم الذى ولد فيه ،
والذى هاجر فيه ، وبلغ المدينة فيه ، وفيه نزل الوحي ، وفيه خرج من غار ثور ،
وفى هذا اليوم رفع الحجر الأسود . .

إنه إنسان تعرفه وتحبه وتعجب به وتسريح له وتبكي عليه وتفرح به . . شاب
ورجل وأب وداعية وشجاع وحكيم . . إنه بشر رائع . .

* * *

وفى المدينة المنورة بحثت عن الشيخ إبراهيم العياشى ، وهو أعلم علماء المدينة
بآثارها . أريد أن أجلس إليه أن أسمع منه . وكان الرجل مريضاً . . فأحزننى
ذلك . . وأسفت له . واعتذرت ولكنه أصر . فلم يخرج من بيته وقتاً طويلاً .
ووجدتها فرصة ليشم هواء منعشاً .

— قل يا شيخ إبراهيم : أريد أن أعرف بالضبط من أين دخل الرسول المدينة المنورة . . كيف . وماذا فعل يوماً بيوم . ومن الذين قابلهم وما الذى أكله وشربه . وأين صلى . وما الذى كان يرتديه وما الذى قاله ؟

وقال الشيخ إبراهيم وهو لا يقوى على أن ينطق أو يحرك عنقه : أفعل إن شاء الله !
وعند أطراف المدينة . قال : من هنا دخل الرسول . . وهنا أقام بعض الوقت . واستقبله أقارب أمه من أسرة بنى النجار . . وغنوا له والطبول فى أيديهم : طلع البدر علينا . . وفى هذا المكان وعلى هذه الصخرة وقف رجل يهودى يصرخ قائلاً :
جاء حظكم . . جاء الذى كنتم تنتظرون . .
وهنا انطلقت ناقة الرسول . . وهنا بركت . . وأقيم أول مسجد . . وهنا صلى . .

وظل الشيخ إبراهيم العياشى ينتقل من مكان إلى آخر . . ويقول : هنا بالضبط كانت معركة أحد . . هذا هو الجبل . . وهنا كانت معركة الخندق . . وهنا كانت بيوت اليهود . . وحدائقهم . . وهنا وتحت هذا الشارع المرصوف كانت قوات المسلمين . . وعند هذه البئر كان يقف الرسول ويحثهم على الجهاد . . وتحت هذه العمارة تماماً وقف اليهود يحاولون أن يجدوا وسيلة للتغلب على قوات المسلمين . . يقول : لقد أمضيت عشرين عاماً أحقق فى موقعة بدر . . وحققتها على الخريطة ولكن حظى الأسود أوقع هذه الخريطة فى يد زوجتى فأحرقها وكتبها أخرى . . ومن يومها وأنا لا أقوى على الكلام أو الحركة . .

قلت له : إنها زوجة سقراط يا شيخ إبراهيم . . هى أيضاً كانت لا تراه بين تلامذته حتى تجدها مناسبة لاحتقاره وتذكيره إنه لا يعمل وإنه عالة على الناس .

ولأنه يمضي وقته يناقش الناس . . ويرسم لها خريطة الحياة المثلى . . بينما هو لا يملك قرشاً ولا منصباً ولا يدري إن كانت زوجته قد حملت منه أو من غيره – أو كان زوجاً أو كانت له زوجة . . ثم تصب عليه الماء القذر لعل الماء يمسح الكلام من لسانه ومن آذان الناس . . ولكن الماء لم يفعل شيئاً ، ولا الزوجة فعلت شيئاً . . إنها بقيت رمزاً لضيق أفق الزوجة وتعاसे الفلاسفة والعلماء حتى بعثت زوجة سقراط مرة أخرى في ثياب زوجتك !

ولو كان عندنا في القاهرة بعض هذه الأمكنة لجعلنا القاهرة في المقام الثاني بعد الكعبة ! . .

فالناس هنا في القاهرة يتزاحمون على قبر الحسين وقبر السيدة زينب ، ونحن نعلم أنهما لم يدفنا في القاهرة – ولكن لو قال أحد ما أقول فلن يصدقه أحد . . ولكني مع ذلك لا أرى ضرراً في زيارة هذه الأمكنة وغيرها ما دامت تريح الناس . فالراحة شيء عسير المنال ! . .

وليس هذا شيئاً كثيراً في جانب من قصة حياة يتييم عبقرى . بعد شهر من ولادته مات أبوه في المدينة . . وبعد ست سنوات ماتت أمه في مكة . . وبعد ثلاث سنوات مات جده عبد المطلب . . ثم جاءت سيرته الكريمة وأخلاقياته الفريدة فجعلته يتيماً مرة رابعة . . الناس على شكل وهو على شاكلة أخرى . .

وترفع عن الناس وارتفع وما زال يعلو « جبل حراء » ويستقر في غاره وينتظر حتى جاءت له السماء بكل ما فيها من نور وحكمة لهداية كل الناس . .

كأن الأرض ارتفعت فأصبحت جبلاً . .

الجبل لما ارتفع بالرسول ، فإن الرسول قد ارتفع به . .

كان الغار حوض من حجر . .

كانه « رحم » الكون كله . . والرسول وليد السماء والأرض . .

أو هدية السماء إلى الأرض . .

وسواء بقى الغار مفتوحاً أو مسدوداً في وجه الهواء أو الشمس أو الناس . .
فالمعنى أبقي والمكان أشرف والعناء المتواضع جداً يساوى أضعافه من المعاني
الإنسانية . .

لاشئ يغير من معنى المكان وصاحب المكان . .

وقديماً احترقت الكعبة وانهدمت مرتين . . وبقيت الكعبة بمبناها ومعناها . .
وبعد ذلك أحرق المسجد النبوي مرتين . . وتهدم وجاءت صواعق السماء
تحوله تحت الأمطار إلى ركام . . ولكن بقى المكان وصاحب المسجد وصاحب
القبر : رسول الله وإلى جواره أبو بكر وعمر . .

وفي ليلة من سنة ٧٥٧ هـ صاح السلطان نور الدين زنكى من نومه في حالة من
الفرع فقد رأى رسول الله في نومه يشير إلى اثنين من الغرباء ويقول له : انجدنى ! ..
أنقذنى من هذين !

رسول الله يقولها للسلطان ؟ !

وروى السلطان على حاشيته ما رأى .

وسألهم : ما العمل ؟

قالوا : نذهب إلى المدينة المنورة . .

وسافروا . وطلب السلطان من حاكم المدينة أن يأتيه بأسماء سكانها جميعاً .

وأن يدعوهم لتحية السلطان. ووقف السلطان يتفحص وجوه الناس حتى لم يبق أحد .
وسأل السلطان : ألم يبق في المدينة أحد لم أره ؟ قالوا : بل هناك رجلان غريبان
من أطيب الناس خلقاً وأكرمهم وأرحمهم . إنهما يتصدقان على الناس . وإنهما
يصليان الليل والنهار !

وطلب السلطان أن يأتوا بهما . وجاءوا بهما . ووجد السلطان أنهما اللذان رأهما
في نومه . وأمسك بهما . وقتش بيتهما . فوجد على الأرض بساطاً . رفع البساط
فوجد تحته سرداباً طويلاً . واعترف الرجلان أنهما كافران من المغرب . وإنهما
تقاضيا مبلغاً كبيراً من المال ليخطفا جثة الرسول . وضج الناس . وحوكم الرجلان .
وأعدما .

وأمر السلطان بأن يحاط قبر الرسول بجدران من الرصاص حتى لا تمتد إليه
يد شريرة . .

وشاء الله أن يحمي رسوله حياً وميتاً . وأن يبقى المبادئ الرفيعة لتكون كل
مدينة منورة وكل سيرة له عطرة ، وكل طريق إليه ومنه إلى خير وسلام الناس
- آمين . .

فهرس الكتاب

- أيام فى الأراضى المقدسة ٥
- أريد .. ولكنى لا أستطيع ٧ - ١٥
- خطوة قصيرة فى طريق طويل ١٧ - ٣٣
- وذاب الشمع الذى وضعته على أذنى ٣٥ - ٧٣
- من بعيد جدا تأتى مياه الأمطار والأنهار ٧٥ - ٩٨
- صورة رسمتها وعشت عليها قد غيرتها ٩٩ - ١٢٨
- صفاء عقل وانشراح صدر ووضوح رؤية ١٢٩ - ١٥٣
- كان بعيدا عن الناس وأسمى منهم ١٥٥ - ١٦٣

كتب اخرى
للأستاذ أنيس منصور
(أ) مؤلفات

- ١ — وحدي . . ومع الآخرين .
- ٢ — عذاب كل يوم (الطبعة الثانية) .
- ٣ — طريق العذاب (الطبعة الثانية) .
- ٤ — بقايا كل شيء (الطبعة الثالثة) .
- ٥ — مع الآخرين . (الطبعة الثانية) .
- ٦ — الوجودية .
- ٧ — عزيزي فلان (الطبعة الثانية) .
- ٨ — يسقط الحائط الرابع (الطبعة الثالثة) .
- ٩ — كرسي على الشمال (الطبعة الثانية) .
- ١٠ — ساعات بلا عقارب (الطبعة الثانية) .
- ١١ — قالوا (الطبعة الخامسة) .
- ١٢ — وداعا أيها الملل (الطبعة الثانية) .
- ١٣ — الوان من الحب (الطبعة الثانية) .
- ١٤ — مدرسة الحب (الطبعة الثانية) .
- ١٥ — من نفسي (الطبعة الثانية) .
- ١٦ — شارع التنهدات .
- ١٧ — الخبز والقبلات (الطبعة الثانية) .

- ١٨ — الحائط والدموع (الطبعة الثانية) .
- ١٩ — حول العالم في ٢٠٠ يوم (الطبعة التاسعة) .
- ٢٠ — اليمن .. ذلك المجهول .
- ٢١ — بلاد الله .. خلق الله (الطبعة الثانية) .
- ٢٢ — الذين هبطوا من السماء (الطبعة الثالثة) .
- ٢٣ — أطيب تحياتي من موسكو .. (الطبعة الثانية) .
- ٢٤ — بقايا كل شيء (الطبعة الثانية) .
- ٢٥ — دراسات في الأدب الأمريكي .
- ٢٦ — يوم بيوم .. (الطبعة الثانية) .
- ٢٧ — يامن كنت حبيبي .. (الطبعة الثانية) .
- ٢٨ — قلبي عليك ..
- ٢٩ — هي وغيرها .. (الطبعة الثانية) .
- ٣٠ — من أول نظرة (الطبعة الثانية) .
- ٣١ — أعجب الرحلات في التاريخ (الطبعة الثانية) .
- ٣٢ — غريب في بلاد غريبة .
- ٣٣ — قلوب صغيرة (الطبعة الثانية) .
- ٣٤ — شيء من الفكر (الطبعة الثانية) .
- ٣٥ — الصابرا « الجيل الجديد في اسرائيل » .
- ٣٦ — دراسات في الأدب الايطالي .
- ٣٧ — من روائع الأدب الايطالي .
- ٣٨ — قصص ايطالية .
- ٣٩ — هذه الصغيرة وقصص أخرى .
- ٤٠ — حلمك يا شيخ علام (مسرحية كوميدية) .
- ٤١ — مين قال مين (مسرحية كوميدية) .
- ٤٢ — جمعية كل واشكر (مسرحية كوميدية) .
- ٤٣ — الأحياء المجاورة (مسرحية كوميدية) .

(ب) مترجمات

- ٤٤ — رومولوس العظيم (مسرحية كوميدية) لفريدريش .
- ٤٥ — هبط الملاك في بابل (مسرحية كوميدية) لفريدريش ديرنمات.
- ٤٦ — أمير الأراضي البور (مسرحية) لماكس فريش .
- ٤٧ — الشهاب (مسرحية) لفريدريش ديرنمات .
- ٤٨ — بعد السقوط (مسرحية) لآرثر ميللر .
- ٤٩ — الامبراطور جونز (مسرحية) ليوجين أونيل .
- ٥٠ — فوق الكهف (مسرحية) لتنسى وليامز .
- ٥١ — من أجل عينيها (مسرحية) لجان جيروود .
- ٥٢ — المثقفون (دراسات) .
- ٥٣ — هي وعشاقها — لديرنمات (الطبعة الثانية) .

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
٢٠٨٨ / ١٩٧٣

هذا الكتاب

((.. اننى لا أدعو الى دين جديد .. انما الى احساس جديد بالدين ..))

كأنتى كنت نائما وصحوت على ضوء الفجر . او كنت ساهرا فامتدت ملايين الأصابع تهدىء كل ما هو نافر ناشز فى رأسى وفى قلبى .

ماذا جرى لى ؟ ما الذى جرى فى داخلى ؟ من أين جاء الماء ينساب عذبا رقيقا .. أهى الأحجار ذابت ؟ فتحولت مجرى ونهرا .. أهى الحياة انطلقت ضياء . ما الذى أضفته الى نفسى ؟ أننى أضفت قلبى الى عقلى .. أضفت نفسى الى نفسى . لقد انضم مجراى الى محيط هادىء عميق .. أو الى الهدوء العميق .. أو الأعماق الهادئة أو الى الشيء الكبير الجليل وراء هذه الأشياء الصغيرة .. الى هذا الصفاء الدائم .

.. كأن شيئا قد سقط عن عيني أو هما العينان قد سقطتا .. فأنا أرى بغيرهما أوضح وأعمق وأصدق .. ولا أدعى أن كل شيء أصبح واضحا .. وانما الواضح قليل .. وأنا أحاول أن أجعله كثيرا ، لعل راحتى أن تطول ودنياى أن تكون خيرا للناس وسلاما علينا جميعا .

اننى فقط أحاول أن أضع أصابعى المرتجفة على الذى أراه بعيدا ولا المسه والذى المسه قريبا ولست على يقين منه ومنى .. اننى أتمس طريقا طويلا عريضا عميقا غريفا بين قلبى وقلوب الناس وقلب الكون — لعلى ولعلهم ...)) .

أنيس فنلور

